عود الى المنهج البنيوى :

مظاهر النزعة الاختبارية فى بنوية ميتروس نقد ابستماوجية النماذج

سالم يفوت

الحديث عن العلم ، يلزمه بالضرورة أن يكون حديثنا عن **وحدة العلم** بالمعنى الكفييسى والالتوسيرى للعبارة ، أى حديثا عن وحدة الممارسة النظرية للعلم . ذلك أن الوهم الاختبارى النزعة يطمس حقيقة هذه الوحدة حينما يميز داخل الممارسة النظرية للعلم بين لحظتين مزعومتين : **لحظة اختبارية** ثم **لحظة نظرية** . اللحظة الاختبارية تمثل الاحتكاك الاولى المباشر بالواقعة التجريبية ، لذا فهى مثل **بداية المعرفة، ومنطلقها** ، أما اللحظة النظرية فانها تمثل **نقطة نهاية المعرفة** ، أى اللحظة التى عندها تتم صياغة الواقعة التجريبية **صياغة صورية** . لهذا فالقول العلمى أو اللغة العلمية عبارة عن **نماذج** تصنع وتركب من طرف العالم استدلالا على جميع الوقائع الملاحظة التى ركبت وبنيت انطلاقا منها . لهذا ايضا يرتبط فى نظر الايديولوجية الاختيارية ، معيار صدق العقلى بالواقعى ويغدو هو الذى بامكانه أن يهب للنموذج المؤهلات التى تجعل منه نموذجا ، كما يغدو معيار صحة وصدق هذا الاخير قائما على البحث عن مصداق ومؤيدا له فى الواقعى .

هكذا سوف يظهر لنا أن السمة الاساسية للاشكالية الاختبارية النزعة ، التى هى الاشكالية المميزة للنزعة اللاعقلانية ، هى مواجهة

وجود واقعى غفل ، بطرائق مثالية اتفاقية تتعلق **ببراعة** العالم التقنية ومقدرته على اخذ لقطة صورية لهذه الواقعة ، تفصح افصاحا جامعـا مانعا عن جوانبها الرئيسية . وان فصل الممارسة النظرية للعلم ، على هذا النحو ، الى لحظتين مزعومتين فيه قضاء على وحدته الجدلية ، تلك الوحدة التى يتحول فيها الواقعى والمعطى من موضوع واقع الى موضوع معرفة ، اى يتملك تملكا معرفيا ، وذلك ببناء الشروط العقلية النظرية لامكانه . ان العلم لا يتقدم الا بحافز دينامية سير ذاتى خاص به ، وليس باملاء من الخبرة الواقعية . كما ان المعرفة العلمية لا تستقى اصولها من العيانى المشخص بل من المجرد الذى يبنى العيانى بناء جديدا ويعطيه ولادة معرفية جديدة . لهذا فان معايير صدق الممارسة العلمية ليست تنصاع أبدا لغير مواثيقها الذاتية الخاصة بها ، فهى ليست معايير اتفاقية ذرائعية ، بل حاصل ممارسات علمية نظرية ، تنبجس انبجاسا موضوعيا من حيث أن العلوم تقدم لنفسها معايير صدقها ، وهى معايير مرتبطة بالبرهنة وبتطور العلم عامة ، فمـا يسمح بوحدة الممـارسة العلمية ويجعلها ممكنة هو **انغلاقها النظرى** اى كونها تحمل فى احشائها معايير صحة معاييرها ، تلك المعايير التى هى مفعول معرفة ، تنتجها النظرية وليست تأتى من خارج النظرية كما يريد دعاة البرجماتية والوضعية **ان المبدأ المحرك لنمو العلم لا يمكن خارجه ، بل فى قلبه ، اى فى التاريخ الفعلى للممارسة النظرية .**

ان انغلاق الممارسة النظرية للعلم ووحدتها هو ما يجعل من العلم ليس تردادا واستطرادا الخبرة وما يمنع القول العلمى من ان يكون قولا فى « الاشياء » المعطاة من الواقع ، اى قولا مكونا من عدد مـن القضايا رموزها مساوية بالضبط لعدد الاشياء الواقعية التى تتصدى القضايا لتصويرها ، اى ما يمنع القول العلمي من أن يكون نماذج عن طريقها تصور مستويات الواقع . وبصدد هذه المسالة بالضبط ، اى مسألة اعتبار القول العلمى نموذجا تصويريا للواقع ، تلتقى الانتربلوجية

البنيوية بالنزعة الاختبارية خصوصا وأن (ليفى ستروس) يميز داخل الممارسة النظرية للانتربلوجية البنيوية بين لحظتين : لحظة **اختبارية اثنوغرافية وصفية** ، ثم لحظة **نظرية اثنلوجية** تركب فيها النماذج التى يجب أن تشكل بحيث يدل استخدامها على جميع الوقائع الملاحظة . لهذا يمكننا أن نجمل الابستملوجية الستروسية فى القول بأنها ابستملوجية تمتمد النماذج ، تطرح مسألة المعرفة العلمية طرحا ايديلوجيا داخل اشكالية اختبارية النزعة تنظر للمعرفة على أنها **انعكاس مرآوى** يقتضى رائيا ومرئيا اى ذاتا وموضوعا .

وربما بدا هذا الحكم قاسيا نوعا ما وصعب على البعض استساغته خصوصا أولئك الذين يعتقدون أن مفهوم (ستروس) للعلم مفهوم قريب الشبه بالمفهوم البشلارى . لهذا سأحاول فى الباب الاول من هذا المقال أن اركز على وحدة الحقل الايديلوجى للنزعة الاختبارية ، اى وحدة تحولاته وتلوناته ، تلك التحولات والتلونات التى تجعلنا ننخدع فنعتبرها فوارق ونضفى على الحقل الايديلوجى ، خطأ ، طابع عدم الوحدة . سأركز على أن وحدة الحقل الايديلوجى تأتى من وحدة اشكالية ، فرغم

الفوارق الموهومة القائمة بينها فان هناك تكاملا اشكاليا يوحد بينها وتناميه مضمرة تجمع بينها . اما الباب الثانى فسأحاول ان ابرز فيه مظاهر الاشكالية الاختبارية النزعة فى فكر (ستروس). وفى الباب الثالث والاخير سأحاول اعطاء ترسيمة أو خطاطة عامة لما يجب أن يكون عليه التصور العلمى للنموذج .

اولا : الحقل الايديولوجي للنزعة الاختبارية

ان الحديث عن اللاعقلانية فى التفكير العلمى المعاصر ، يلزمنا بالانتباه الى نقطة ذات اهمية كبرى ، الا وهى تداخل مختلف النزعات اللاعقلانية فى العلم تداخلا بنيويا ، فصور وأشكال اللاعقلانية فى العلم

لا يمكن الذهاب الى النظر اليها على أنها تمثل مذاهب **مغلقة ومنفصلة** وقائمة بذاتها ، بل انهـــا تمثل استمرارا واتصـــالا لتشكيلة ايديلوجية وحادة . وهذا ما يمكننا أن نعبر عنه هـــا **بوحدة الحقل الايديلوجي** . وهي وحدة صميمية لا يمكن ان تدرك ظاهريا . اذ ظاهريا ، لا نجد الا تضادا واختلافا ، الا انه تضاد سطحي مظهرى ، تنوى خلفـــه **وحـــدة الاشكالية** والتي هي في نفس الوقت ما يوحده .

في نظرتنا الى الايديلوجية ، سوف ننظر اليها من حيث هي حقل ايديلوجي ، ذو وجه أصيل وسمة جوهرية هي ما يوحد فوارقه وتلوناته وفي منطوقنا هذا حاولنا أن نستفيد من الدراسات البنيوية التي تهتم أكثر ما تهتم بقانون تشكل مجموعات مختلفة ومعقوليتها ، اى الهيئة التي تحدد مجموعة ما في تفردها وقابليتها للمقارنة، وهو تحديد قمين بأن يجعلنا نكتشـــف خلـــف الفوارق وحـــدة ، ونـــرى المشاركات حتى في الاختلافات . « فالمجموعة لا تأتلف من الاشبـــاه بل من **التغـــيرات الفرقيـــة** »(1) . ونفـــس هذه النظـــرة البنيـــويـــة ان طبقنـــاهـــا علـــى الحقـــل الايديلوجي ، ظهر لنـــا كمجمـــوع منظـــم ومنتظـــم ، مؤلف من سلسلة عناصر تأتلف على نحو يترجم عما ينفرد به المجموع، و يحدد ايضا ما يشكل وجهه الاصيل . وان الاصالة البنيوية لحقـــل ايديولوجي لتمكن بالضبط في وحدة اشكاليته الداخلية والخاصة بـــه . ورغم ما يبدو من تعارض واختلاف الاقوال الايديلوجية ، التي هي من نفس التشكيلة فان تنامية مضمرة تجمع بينها ، أي انها اقوال متكاملة فيما بينها ، يفضي بعضها الى الاخر ضرورة ، وما يسمح بذلك هو وحدة الاشكالية النظرية التي تطرح المسألة المعنيـــة بالامـــر طرحـــا ايديلوجيا ينتظر جوابا محددا تحديدا سالفا بنوعية طرح المســـألة . فالسياق الايديلوجي الذى تطرح المسألة ضمنه هو الذى يفرض على

---

1 ـــ جان ـــ ماري اوزياس ـــ البنيوية ـــ ترجمة ميخائـــيل مخول ـــ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـــ دمشق 1972 . ص 15 .

الاجوبة المعطاة لها وجها معينا أو وجوها لا يمكن القول بانها متمايزة جذريا ، بل هى مجرد اشكال والوان قابلة أن يضغم بعضها فى الاخر وان يرد بعضها الى الاخر نظراً لوحدة الافق الذى يجمعها والذى ضمنه طرحت المسألة .

ويؤكد ألتوسير (1) على أن كل أيديلوجية يجب النظر اليها على أنها كل حقيقى متميز ذى صفات متفردة ، توحد داخليا اشكاليته الخاصة بحيث لا يمكن أن يستل منه عنصر دون الاخلال بمعناه . وأن هـذه الايديلوجيا ككل ، تابعة فى معناها ، لا لملاقتها بحقيقة مختلفة عنها ، ولكن لملاقتها بالحقل الأيديلوجى ، اى لملاقتها باشكالية خاصة . ولكل اشكالية خاصة مبادىء تقوم عليها تكون بمثابة العناصر الاساسية المكونه لبنية الحقل الايديلوجى ، مثال ذلك ، النظرية الاختبارية فى المعرفة تشكل حقلا ايديلوجيا متميزا يقيم فى ساحته تعارضا وصراعا وهميا بين موضوع معطى هو الواقع ؛ و ذات معطاة هى الانا ، وهؤلاء الاشخاص المتصارعون هم الذين يكونون العناصر البنيوية لبنية الحقل الايديلوجى. لهذا يمكن اعتبار كل تفكير يطرح مسالة المعرفة فى حدود تمارض الذات والموضوع ، تفكيراً اختبارى النزعة .

تصيب الحقل الايديلوجى تحولات عديدة ، تكون هى الاصل فـى تغيراته وتنوعاته . ومصدر هذه التحولات هو نظام ائتلاف عناصره . انه نظام يقوم على نوعية علاقة ارتباطها وكيفية ائتلافها والدور الاساسى الذى يقوم به كل عنصر داخل مسرحية المعرفة . وطالما بقيت عناصر الحقل الايديلوجى الاختبارى النزعة على هذا النحو ، لم نتجاوز المجال النظرى لنظرية المعرفة الاختبارية . غير أن ما يؤدى الى حدوث تغيرات و تحولات فى بنية الحقل الايديلوجى الثابتة هو الكيفية التى نتصور بهـا حركة انشاء المعرفة ، عندما يعطى الدور الرئيسى فى مسلسل المعرفـة لهذا العنصر او ذاك . وهي تغيرات مهما بلغ مداهـا ، لا تؤدى الـى تجاوز الاشكالية المحددة للبنية الثابتة للمعرفة الاختبارية .

1) - Althusser - Pour Marx F. Maspero - 9e édition 1972. pp.59 61.

وأننا عندما نتحدث عن وحدة الفوارق داخل نفس الحقل الايديلوجي لنريد بذلك الالحاح على ضرورة فهم الحقل البنيوى لتشكيلة ايديلوجية ما في مدلوله الاشمل من حيث انه يحدد سقف مجالا نظريا اساسيا تنبجس منه تصورات ليست بالضرورة متفقة ظاهريا ، وعدم الاتفاق ذاك هو ما يسمح بامكان تغيرات الاشكالية الداخلية الخاصة بالحقل ، فالنظرية الاختيارية في المعرفة تقيم نزاعا بين ذات وموضوع ونعتبر المعرفة تقوم فعلا من عملية ذاتية تدعى تجريد . نعرف، عندما نجرد من الموضوع الواقعي ماهيته ، ونسمى امتلاك الذات لهذه الماهية معرفة . ان المعرفة تجريد بالمعنى الدقيق ، اى انها استخراج الماهية من الشيء الواقعي الذى يحتويها وفصل الماهية من الشيء الواقعي الذى يحتويها ويخفيها بتخبئته أياها (1). وان أعطاء عنصر الحضور الفعلي للموضوع الدور الاول في عملية المعرفة ليعتبر السمة البارزة والمميزة لنظرية المعرفة الاختيارية النزعة وهو أمر تترتب عليه مجموعة نتائج قد تبدو متناقضة للعين السطحية للنظرة غير الفاحصة ، الى حد أن الكثيرين قد لا يقبلون بها ويرفضون الاعتراف بأنها نتائج تنشأ منطقيا عن الاشكالية الاختبارية النزعة وأنها من صنع هذه الاخيرة . من بينها أن الافق الذى تطرح فيه النظرية الاختيارية مسالة المعرفة هو أفق علاقة مرآوية بين رايي ومرئي عندما يكون الموضوع المرئي قد بلغ من الشفافية حدا يصبح معه كشف ماهيته أمرا سهلا ، نكون هنا أمام تغليب عنصر الواقع أى أمام نزعة اختبارية واقعية حسينة . أما عندما ننكر هذه الشفافية عن الموضوع ونعتبر كشف ماهية هذا الاخير أمرا عسيرا على الذات مالم تكن حاصلة سلفا على مؤهلات نظرية تساعدها على استخراج تلك الماهية ، وذلك بتنقية الموضوع و تصفيته وتطهيره ، أى بحذف الجزء غير الجوهرى مما هو واقعي في سبيل عزل الجزء الجوهرى آنئذ تغدو نظرية المعرفة الاختبارية شاملة للنزعة العقلية كضرب اختبارى جديد ، وكلون من

---

1 — لوى التوسر — قراءة رأس المال — الطبعة الاولى — ترجمها تيسير شيخ الارض . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى 1972 . ص 44 وما بعد .

الالوان الاختبارية النزعة لني لا تعترف، النزعة الاختبارية بشرعيتها خصوصا لانها لم تولد الا فى ظروف صمت ، وفى لحظات انكار وفى منطقه تحريم . النزعة العقلية ليست فى الاخير اذن سوى لونا اختبارى النزعة حاضرا حضورا عميقا فى قلب النظرية الاختبارية . ان ما تصنعه النظرية الاختبارية وتفعله ليتجاوز بكثير ما تقوله وتصرح به ، ذلك لان نفس الاشكالية التى تنطلق منها ادت وتؤدى الى ابجاس مواقف اخرى مضاده ، الا انها من نفس اللون والضرب . وان هذا الانبجاس والانبثاق اللاارادى للتصورات هو ما يعكس تحولات ايديولوجيه متميزه ونموها .

من وجهة النظر هذه « يغدو من الجلى أن النزعة الاختبارية والنزعه الصوريه ليس لهما من وظيفة اخرى سوى ان يحتلا حدود زوج مكون من جتماعهما » (1) انهما تنيوعان لنفس الاشكاليه الواحده . من وجهه النظر هذه أيضا ، يتجلى لنا بوضوح لماذا ميزت النزعة الوضعية المنطقية بين علم صورى و علم اختبارى . لماذا اقامت وحدة العلم على وحدة لغته الصوريه . حقا ، ان السبل اختلفت فى تاكيد هذه القضية، لكن الاشكالية كانت واحدة . أننا داخل المعسكر الوضعى ، نجد انفسنا أمام صراع داخلى يتخذ صورة مناوية اختبارية / صورية ، وسوف أسوق على ذلك مثالا توضيحيا : فى مقال « الاسس المنطقية لوحدة العلم » (1938) ميز كرناب تمييزا قاطعا بين علم صورى وعلم اختبارى . وانطلاقا من هذا التمييز مير بين نوعين من المنطق : منطق نظرى صورى هو المنطق الرمزى والرياضى ، أى منطق العلوم الصورية. ومنطق تطبيقى هو ما يمكن أن نسميه بمنطق العلوم الاختباريه (2) . وقد أهتمت حركة كرناب المنطقية بنوع خاص بهذا القسم الاخير . ويقوم على تحليل الحدود والقضايا والنظريات الموجودة فى مختلف العلوم

---

1) - A. Badiou - Le concept de modèle - F. Maspero 1970. P. 9,

2 — راجع . الدكتور يحى هويدى — ما هو المنطق ؟ مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الاولى القاهرة . 1966. ص 159 وما بعد .

تحليلا منطقيا يتناول صورتها المنطقية باعتبارها تعبيرا عن البناء المنطقى لنظام القوانين والقضايا لهذه العلوم . فما اهتم به التحليل المنطقــى للعلوم الاختبارية هو لصورة المنطقية لقضــايــاهـــا وصورة العلاقات الصورية الممكن اقامتها فيما بينها . وانطلاقا من ذلك راى امكان قيام علاقات صورية بين القوانين البيولوجية والقوانين الفيزيائية ، وبيــن القوانين السيكلوجية والقوانين الفيزيائية أيضا . ومعنى ذلك ان الفيزياء يمكنها ان تصبح قاعدة اختزال ترد حدود وقضايا كل العلوم الاختبارية اليها ، وهو امر يمكننا من الحصول فى الاخير على لغة فيزيائيه واحــدة تكون اساس وحدة لغة العلم الاختبارى . وهى وحدة صورية : بدلا من ان ترى لكل علم من العلوم الاختباريه موضوع معين يصف وقائع معينه ، تذهب الى أن لكل علم الفاظ وحدود معينة . فبدلا من الاسلوب فــى التحليل ، القائم على ادراك النحوى والمعنى وراء اللفظ الدالى ، يقترح كرناب الاسلوب الصورى الذى يهتم بالصور والاشكــال اللغويــة التى تتخذها الجملة العلميه دون التفات الى معانى الالفاظ .وهو أسلــوب يمكننا ، بعد وضع لغة فيزيائية موحدة لجميع العلوم الاختبارية ، من تكوين لغه صورية من درجة ثانية تكون وصفا لتراكيب اللغة الفيزيائية ، أو سيكون قوامها « منطق التراكيب » ، وهذه اللغة بعينها ستضطلع باقامتها الفلسفة فى مفهومها لدى الوضعية المنطقية الجديدة . لكن ما هى العلاقة التى يمكن تصورها بين هذه اللغة الصورية لعلوم الواقع واللغة الرمزية الصورية للعلوم الرياضية المنطقية لا أن الجواب عن مثل هذا السؤال جد بسيط فى نظر كرناب : ما يجمع بين هذين المتسمين من اللغة هو صوريتهما اى كونهما معا لا يشيران الى اى شىء ولا يهملان الا الجانب البنائى من العلم اى جانب التركيب . فوحدتهما اذن ثــابتة لا غبار عليها . وبهذه الكيفية يتغلب كرناب على الصعوبة التى يطرحها تمييزه الاول بين نمطين من العلوم ، وهى كيفية ، كمــا نلاحظ ، تقوم على حذف الصعوبة نفسها بعد التسليم بها فى البداية على انها قائمة

نظرا لوجود انقسام داخل نظام العلوم . فالحل الذى يقترحه كرناب يقوم على التأليف بين طرفى المناوية التى تلزم وتترتب عن طرح مسألة المعرفة طرحا ايديلوجيا داخل اشكالية تكسر بنية الممارسة النظرية . الا انه ليس الحل الوحيد الممكن فى اطار الايديلوجية الاختبارية . فبامكاننا المثور على السوان لا متناهية غير أنها لا تخرج عن ما يفرضه الحقل الايديلوجى نفسه من حلول محددة تحديدا سالفا بنوعية طرح السؤال نفسه . مثال ذلك ان وضعيا آخر مثل « كوين » طرح نفس المسألة التى رأيناها مع كرناب واعطاها حلا لا يتفق معه كرناب مطلقا. فكوين ينطلق خلافا لكرناب من « القضاء » على التمييز بين حقيقة الواقع وحقيقة المنطق ، فى نظره أننا عندما نقبل بوجود متغيرات داخل حساب منطقى فمعنى ذلك اننا نمنح الحق للثوابت التى هى قيم المتغيرات . لكن الثوابت لا تكون قيم متغيرات الا بقدر ما تسمح بالاشارة الى موضوعات عيانية ، والعكس أيضا صحيح ، ان ما « يوجد » وجودا اختباريا ، ليس شيئا آخر سوى انه قابل لان يحدد ويعين بقيمة ثابتة ، يقول كوين : « كل ما يوجد ، يوجد كقيمة لمتغير » . ومعنى ذلك أن الاختبارى يصبح بمدأ للصورى ، أو العكس ، يكون الصورى بعدا للاختبارى . غير ان هذا التعارض بين كرناب وكوين ، تعارض داخلى ، أى يتم داخل نفس الاشكالية . (1) اذ رغم ما يقوم به كوين من انكار ورفض للتمييز الكرنابى بين علوم الواقع والعلوم الصورية ، فان نظريته ليست تمثل رأيا مناقضا لرأى كرناب ، باعتبار أن الفرق الذى كان كرناب يريد اختزاله لم يفعل كوين الا على طمسه والقضاء عليه دون أن يؤدى به ذلك الى تخطى التعارض القائم بين ما هو واقعى وما هو صورى . لدى كرناب صيغت المسألة داخل حدود تعارض بين الواقعى والصورى كى يكون الحل المعطى تجاوزا لهذا التعارض نفسه وتاليفا لحدية دون تجاوز الاشكالية ذاتها التى حددت السؤال وحددت الجواب . أما لدى كوين ، فقد صيغت نفس المسألة داخل حدود

---

1) - A. Badiou - Le concept de modèle. pp. 10-11.

تنفى التعارض دون أن تتجاوز الاشكالية التى انتجته، فهى تنفيه لتؤكده ، انها « تحل » المسألة بحيلة صعوبتها الى اجابة . فالتناقض يحذف على أساس التناقض نفسه كما ان التعارض والاختـــلاف بين الصورى والاختيارى يشكل المبدأ المنمو الايديلوجيا الاختباريه لدى الوضعية المنطقيه ان الفرق الذى حاول كرناب تقليصه واختزاله تم ارجاعه الى لغه علميه أعم ، هو نفسه ذلك التناقض الذى حاول كوين رفضه لا بالخروج كليه من نفس الاشكالية التى تتضمن جميع الاسئلة المطروحه داخلها القول بوجود ذلك التناقض ، بل باعلاء طرف المنـــاوية الاخر ، أى الجـــانب الصورى. ورغم التعارض الواضح لهذين اللونين من الاقوال الايديولوجية فان الارتباط بينهما يبقى عميقا ، اذ أنهما لايمثلان سوى طرفى مناوية تسندهما نفس الاشكالية الفلسفية وتوحدهما ، كما تجمعهمــــا تناميه واتصال رغم تمايزهما المظهرى الخداع . وهو تمايز لا يمكن أن يمثل « فصلة ابستملوجية » كتلك الموجوده بين القول الايديلوجي والقـــول العلمى . فمن نفس الاشكالية النظريه لا يمكن الانتقال من الايديلوجية الى العلم اذ أن ذلك لا يتم تدريجيا وفى خط متصل ، بل طفرويا ، اى بتحويل الافق بكامله وتغيير الاشكالية وأنجـــاز الفصلة الابستملوجية اللازمة واجراء عدول من أجل اكتشاف أماكن بناء جديد لا يمثل طابقا علويا لنفس البناء الايديلوجى ، بل يكون بناء جديدا يقام بعيدا عنه أو على أنقـــاضه .

بتعبير أدق ، أن ظهور واختفاء الاختلاف بين الصورى والاختبارى من هذا المفكر الى ذاك يمثل فى الحقيقة تنويعات ايديلوجية لا شكالية واحدة ، وهى تنويعات تعيش فى دور فاسد تفرضه عليهـــا الاشكــالية نفسها ، دور يجعل الاجابات جاهزة سلفا ومحددة من طرف نوعيـــة السؤال الايديلوجي والكيفية التى يطرح بها ، انها اجابات لا تستطيع ان تبلغ كنه المشكل . اذ ان ذلك لا يتم الا بالخروج من الاشكالية . هى اجابات لا تعكس فى الاخير سوى مدا وجزرا ايديلوجيين لا يستطيعان مهما بلغا من قوة ومدى أن يخرجا عن الحدود الضيقة المفروضة لهما .

داخل حقل ايديولوجي ما ، نكون امام متناقضات موليـــة ، كــل منهــا تفعل في الاخير سوى أن نؤلف ، على شاكلتها ، العناصر التي يفرض وجودها الحقل الايديلوجي . كما أن كل واحدة منها تدعي بأن تاليفهــا ذلك ، هو الاكثر معقوليه لحل المشكل ، وانه اصيل يحس اصالتهـــا كمذهب يريد لنفسه ان يكون متميزا عن المذاهب الاخرى التي ينازلهـــا ويصارعها من نفس الساحة الايديلوجيه وباستعمال نفس العناصر التي يوفرها الحقل والموجودة على نفس الساحة .

ان النظرة الصحيحه للحقل الايديولوجي يجب ان تمكننا من انبحث عما يوجـــد داخليا مقولتين متعارضتين تنتميان الى نفس الاشكالية ، كما يوحد قولين ايديلوجيين متفارقين ظاهريا ، الا أنهما متشابهان من الجهة البنيوية . انها نظرة ستسمح لنا ايضا باعتبار كثرة الاقوال الايديلوجية تعكس أمكان توسع تحولات الايديلوجيا توسعا لا محدوداً ، الا انه في نفس الوقت توسع يكون ليس قادراً على ان يملأ الفراغ المترتب عن سلسلة الالتباسات التي تماني منها الاشكالية ، وغير قادر كذلك على الخروج من الحدود القارة التي يفرضها الحقل الايديلوجي .

أن توسع تحولات الايديلوجية يتخذ استمادة لنفس الموضوع ولنفس الفكرة ، وهي استمادة قد تكون مغايرة الى حد ما لسابقاتها ولاحقاتها ، الا انها تصدر عن نفس الفهم : ففي مثال كرناب وكوين ، نجد أنها تصدر عن فهم المعرفة على انها جزء واقعي من الموضوع الواقعي ، هذا الفهم يسجل المعرفة في البنية الواقعة للموضوع الواقعي . و « النزاع » لا يمس جوهر هذه الحقيقة نفسها ، بل يمس طرفي المناوبة ، والتـــي لا تنخرط الا في هذا الفهم وهذه الاشكالية . وهذا ما يقصده التوسير عندما يصرح بأن « معنى نـــمـــو ايديلوجية متميزة (...) يتبـــع العلاقـــة القائمة من هذا التوسع بين تحولات هذه الايديلوجية المتميزة وتحولات الحقل الايديلوجي وما يسنده من المسائل والعلاقات الاجتماعية » (1)

---

1) - L. Althusser - Pour Marx. p. 59.

ومعنى ذلك بالنسبة لمسننا هو أن النزعة الاختبارية هي ايضا نزعة صورية ، لان اكتشاف ماهية الموضوع الواقعي واستخراج ما هو جوهري فيه ، تكون محتاجين عبه الى مبادىء قبلية صوريسة او الى نشاط تحليلي يعجز الموضوع أن يوجد بدونه . لهذا نرى أن طرفي المناوبة هنا يمثلان حلين ممكنين ، كما يمثلان موضوعين مقترحين لحل مسألة طرحت ضمن اشكالية معينة بحيث يمكن استعادتهما على انحاء متعددة تعددا لا نهائيا حيث يلعب هنا العامل الشخصي للمفكر دورا أساسيا ، وهذا ما تدل عليه الجملة الاخيرة لالتوسير في القول الوارد اعلاه والتي يركز فيها على أن توسع الحقل الايديلوجي يتحكم فيه أيضا ما يسنده من مسائل وعلاقات اجتماعية أي التاريخ الفعلي للمفكر من حيث هو فرد مشخص ، ذلك التاريخ الذي ينعكس فيه كفرد ويجعل منه حصيلة ومفعول روابط معقدة . وحتى أوضح مقصودي من هذه القضية اقول . ان المبدا المحرك للنزاع الداخلي بين كرناب وكوين يكمن في قلب الايديولوجية الاختيارية النزعة نفسها أي في توسع تحولات الحقل الايديولوجي الاختياري . كما أنها تمكن في ما قبل هذه الايديولوجية المتميزة أي في التاريخ الفعلي للافراد المنتمين اليها ، واظنني في غنى هنا عن آتي بحقيقة تاريخية ، الا وهي ان النزعة الوضعية الجديدة تعتبر امتدادا لحلقة فيينا المنحدرة بدورها من « نزعة ماخ الفيزيائية » التي يعتبر كرناب من المع دعاتها وامتدادا للنزعة البرجماتية الامريكية التي يعتبر كوين من أبرز مؤيديها . وربما في هذه الملاحظة ما يلقى لنا كثيرا من الضوء على الدواعي التاريخية التي تحكمت في النزاع الداخلي بين دعاة الجانب الاختباري و دعاة الجانب الصوري في النزعة الوضعية المنطقية .

ان استعادة الموضوع الذي هو مصدر تحولات الايديلوجية يشبه بكثير ما نلاحظه من جدل المواضيع وتنويعها في المتسلسلة الموسيقية (1).

1] - A. Badiou - Le concept de modèle. pp. 11 et sq..

يتخذ من هذا الجدل صورة **تغيرات** موسيقية لنفس اللحن الرئيسي أي استمادة له تحت أشكال مختلفة . الا أن اختلافها ذلك لا يجعل منها **تغيرات** متنافرة ، بل يضفى عليها صفة التناغم و طابع الوحدة والاسترسال ، لهذا فهي تصبح اختلافات **لنفس اللحن** الذي يوحد تغيراتها الفرقية ويضفى على المجموع وحدة بنيوية تعكس الوجه الاصيل للمتسلسلة أو السمفونية بكاملها . وان هذا النظام ، نظام الاختلافات والفوارق اللانهائية بين **التغيرات** ، لا يشكل فى الاخير سوى مفعول اختلاف أساسي و فرق (وحيد) بين اللحن الرئيسي وبين التنويعات الاخرى المخالفة له و المفضية اليه والتى لا تجد تناغمها الا فيه بوصفه لحنا رئيسيا يتردد عبرها ويوحد تعارض نغماتها . لذا يمكن القول : أنه **نظام وحقل تنويعات ممكنة** ، أو بتعبير افضل : أنه يمثل مجال تنويعات . ومعنى ذلك أنه هو ما يسمح بامكان التنويعات والتغيرات ، ومن هذه الناحية فهو يمثل مجال بنيويا سابقا على الاجزاء والعناصر الفعلية او الممكنة ، وليس يمثل اجتماعا لها . اذ ان طبيعة اشكاليته هى ما يعطيه صفة تفرده و يضفى طابع الوحدة على فوارقه اللانهائية . ان الفوارق لا تظهر فوارق الا فى مجال بنيوى يوحدها كفوارق ويسمح لنا برؤية المشاركات والتشابهات حتى فى الاختلافات . فالمجموع رغم **وحدة** اشكاليته ، ورغم **تفرد** بنيته ، لا يأتلف من عناصر متشابهة نهائية ومحدودة ، بل من تغيرات فرقية **لا محدودة** . وان خطل الرؤية ليكمن فى الاعتقاد أنه بامكاننا تحديد الوحدة النسقية للتنويعات الايديلوجية انطلاقا من **احصاء عددى** لهذه التنويعات نفسها وذلك بحصر صفاتها وخواصها المحددة الثاوية خلف فوارقها و باعتبار أن اجتماعها (اى التنويعات) هو ما يكون الوحدة النسقية لفوارقها . وهى رؤية كما هو ملحوظ ، توقعنا فى خلط كبير ، اذ بدلا من أن نحاول دراسة قانون **نمط انتاج** نسق التغيرات ونظام التنويعات ، نكتفى بالقيام بوصف احصائى لها ، وكانها تمثل مذاهب قائمة بذاتها ومحدودة العدد ، دون أن نحاول البحث

عن الاشكالية الاساسية التى تترجم عما ينفرد به ذلك النظام ، او أن نبحث عن الموضوع الذى يحدده .

يمكننا ان نستخلص مما سبق انه اذا كان الحديث عن **العلم** بصيغة المفرد عرض ايديولوجي ، فان الحديث عن **الايديولوجية** كذلك بصيغة المفرد عرض ايديولوجي. اذ أننا امام علوم بالجمع وايديلوجيات بالجمع . الا ان نمط جموعهما مختلف . ففى الحين الذى تشكل فيه العلوم منظومة خفية لفوارق متمفصلة ، نجد الايديلوجيات تشكل تآلفا متصلا لتنوعات » (1) .

لنقل اذن أنه داخل كل تشكيلة ايديلوجية ، كل مسألة تطرح ، الا وتطرح بكيفية يكون جوابها محددا تحديدا سابقا من طرف التشكيلة الايديلوجية نفسها ، أى أن تحديد صياغة المسألة يشكل بحيث يتوقع جوابا بالذات تتحكم فيه الكيفية التى صيغت بها المسألة ، لهذا نذهب ايضا الى التاكيد بان التزييف الذى تمارسه كل تشكيلة ايديلوجية ، ليس يكون تزييفا فى الاجابات فقط ، بل ايضا فى الاسئلة ذاتها ، أى فى طريقة طرحها ولحدود التى ضمنها تطرح . ففى اطار الاسئلة المصاغة صياغة ناجزة من طرف الحقل الايديلوجى ، يمكن الحديث عن استباق حلول ، أو توقع اجابات هى بالطبع خاطئة ، و خطؤها ذلك يعكس خطأ الاسئلة المطروحة ، « فصياغة **مسألة ما** ، فى نمط الانتاج النظرى للايديلوجية ... ليست الا التعبير النظرى عن الشروط التى تتيح **لحل** ما قد انتج سلفا خارج عملية المعرفة ، ان **يتعرف ذاته فى** مسألة مصطنعة ، لفقت لتكون مرآة نظرية وتسويغا عمليا فى وقت واحد معا ، لان هذا الحل تفرضه سلطات ومقتضيات خارجة عن حدود النظر (أى تفرضه « مصالح » دينية أو اخلاقية أو سواها) » (2)

فى الاشكالية الاختبارية التى تهيمن عليها مسألة علاقة الصورى

1) - A. Badiou - Le concept de modèle. p. 12.

2 ــ لوى التوسير ــ قراءة رأس المال ــ ص 75 .

بالاختبارى ،تهيمن صياغة مسألة المعرفة صياغة فى حدود مفتعلة تنتظر انتاج أجوبة مفتعلة ، وهى أجوبة لن تكون فى الاخير سوى مفاعيل نظرية عملية يتوقعها دعاة الاختبارية من طرح المسألة على ذلك النحو فالحلول كما نلاحظ ، تنصاع للحقل الايديلوجى وما يسنده من علاقات ومسائل اجتماعية ، ومن جراء ذلك الانصياع أن كل الاجوبة المعطاة يكون طابعها هو **التكرار** ، اى تكرار اجوبة خاطئة ، **تنويع** طريقة الاجابة ، وهى مسألة ، كما رأينا ، تعكس فى حقيقة الامر تكرارا آخر ، الا وهو **تكرار السؤال الخاطىء** .

ينبغى التنبيه الى ان الخروج من تكرار الاجابة يستلزم الخروج من تكرار السؤال ، أى تغيير الافق والاشكالية . او بتعبير افضل ، اجراء عدول عن المجال الايديولوجى الذى يحدده السؤال الايديولوجى. يلزم الخروج من المجال **المغلق بالضرورة** ، اى الدائرة ، التى لا يمكن اجتناب انغلاقها ، دائرة العلاقة بين الذات والموضوع ، بين الصورى والاختبارى ، والتى تميز نمط الانتاج النظرى للايديلوجية الاختبارية . ولكى يتم ذلك العدول المراد والبحث عن مجال جديد ، **لابد من فتح** مجال آخر يكون هو المجال الذى يتطلبه « **الطرح الصحيح للمسألة** ، **والذى لا يستبق حلها** » (1) اننا فى الحقل الايديولوجى للنزعة الاختيارية نكون أمام دور فاسد تتكرر فيه الاجابات ويتنوع تكرارها مثلما يتكرر السؤال ويتنوع تكراره ، ومهما بلغت درجة هذا التنويع وخصوصيته وأصالته ، فذلك لن يخرج الحقل المقترح من الدور الفاسد ولن يحرره من سجنه الايديلوجى . والغريب فى الامر انه رغم ما قد يدعى من انفتاح قائم على محاولة الخروج من المجال الايديلوجى ، فانه يبقى مجرد انفتاح قائم على استعادة للمجال نفسه دون القدرة على الافلات منه . لهذا يلزمنا الحيطة والحذر مما يتبجح به كل تنويع عندما يعتقد فى نفسه اصالة تفرده عن باقى التنويعات الاخرى ويميزه منها ، اذ أن مرد ذلك

1 — لوى التوسير — نفس المرجع — ص 76

هو ان « كل تنويع يعتقد اعتقادا وثوقيا أنه يوجد فى مكان أشرف بالنسبة لباقى التنويعات الاخرى » (1)

كخلاصة لهذا الباب نقول اذن :

1 — كل ايديلوجية تمثل مجموعا قائما بذاته ذا أصالة بنيوية تفرده وتميزه ، فهى كل حقيقى توحده بنيويا اشكاليته الخاصـة به ، تلـك الاشكالية التى تجعل صياغة كل مسألة داخل نمط الانتاج النظرى لهذه الايديلوجية صياغة ناجزة ومحددة تحديدا سالفا ، كما تعبر تعبيرا نظريا عن الشروط المفتعلة التى يجب بالضرورة أن يكون الحل المقترح ضمنها.

2 — كل ايديلوجية متميزة تكون تابعة فى معناها ومدلولها لعلاقتها بحقل أيديلوجى موجود ، وما يسنده وينعكس فيه من بنى ومسـائـل اجتماعية . ومعنى ذلك أن نمو ايديلوجية متميزة ، لا يتبع علاقة هذا النمو ببداية تكون هى بدايته أو نهاية تكون هى نهايته ، وعلى اعتبار هذه البداية وتلك النهاية هما حقيقته ، بل يتبع العلاقة القائمة فى هذا التوسع بين تحولات هذه الايديلوجية المتميزة وتحولات الحقل الايديلوجى وما يسنده من المسائل والعلاقات الاجتماعية .

3 — ان صياغة مسألة ما فى نمط الانتاج النظـرى للايديلوجية يختلف كل الاختلاف عن صياغتها فى نمط الانتاج النظرى للعلم . ذلك أن المبدأ المحرك للعلم ولنموه لا يكمن خارجه ، بل فى قلبه ، اى فى نمط التاريخ الفعلى للممارسة النظرية للعلم ذاتها والتى ليست تخضع لمعايير اخرى سوى معاييرها الذاتية الخاصة بها . أما المبدأ المحرك لنمـو ايديلوجية متميزة ، لا يكمن فى قلب الايديلوجية نفسها ، بل خارجها اى فى ما قبل الايديلوجية المتميزة : انه يكمن فى الحقل الايديلوجى الموجود، وفى مؤلفها من حيث هو فرد عيانى مشخص : وفى تاريخه الفعلى الذى ينعكس فى هذا النمو الفردى حسب الروابط المعقدة بين الفرد وهـذا

(1) - A. Badiou op. cit. p. 13.

التاريخ . لهذا فالسؤال الذى يطرحه مفكر ما داخل الممارسة الايديلوجية ، لا يطرحه الا لانتاج جواب حددته مسبقا سلطات مغايرة لسلطة المعرفة ذاتها ومصالح غريبة عن واقع المعرفة ، قد تكون مصالح عملية تقنية ، او 'خلاقية اجتماعية ... فهو سؤال اذن تغلقه اجابته اغلاقا ينصاع للحلول الممكنة التى يقيمها الحقل الايديلوجى المنغلق على نفسه انغلاقا بنيويا . ان الدور الايديلوجى الفاسد الذى يلزمنا به الحقل الايديلوجى يطرح جميع الاسئلة ضمنه ، يرغم كل الحلول المقترحة ايضا بأن تؤكد ذلك الانغلاق ، وذلك باحترام الادوار المعطاة لها لكى يكون فى امكانها القيام بتلك الادوار فى تواطؤ ايديلوجى أنجز فى ظل سلطات مغايرة لسلطة العلم . فكل سؤال داخل الحقل الايديولوجى يكون بالضرورة سؤال **ضمان** (1) ، يضمن احترام انغلاق الدائرة الايديلوجية . فى حين ان صياغة سؤال ما من نمط الانتاج النظرى للعلم ، تكون صياغة سؤال انفتاح ، يعبر فى بنيته عن بنية انفتاح المعرفة العلمية . فالاسئلة فى العلم ليست اسئلة ضمان ، بل هى اسئلة وحسب ، ينبغى أن تطرح .

4 — من هذا المنظور لقائم على اعتبار كل ايديلوجية متميزة نتبع فى معناها علاقتها بالحقل الايديلوجى الذى يفرض عليها سياقه وجها معينا ليس من الضرورة الحتمية ان ينطبق مع هويتها التاريخية الحرفية (1) ، يمكننا القول : ان الايديولوجية تتمثل مجموعات تاريخية ، كل مجموعة توحدها اشكاليتها الخاصة بها . ومن هذه الناحية ، اى ناحية وحدة الاشكالية ، نعثر رغم الفوارق والاختلافات داخل كل مجموعة على تشابه وتضافر حقيقى لا من حيث المظهر المادى اى المضمون ، بل من حيث وحدة التشكيلة الايديلوجية . « يجب ان نعتبر

— لوى التوسير — نفس المرجع الانف . ص 79

2) - Althusser - Pour Marx. p. 61.

مادة التفكير (مضمون المنظومة) اقل تشخصا فى النظرى هو الاشكالية الاساسية. » (1).

يظهر من ثم اذن أن أصالة تفكير مفكر ما وعلميته لاتنفى مع ذلك امكان وجود تفكيره ذلك فى منطقة جذب ايديلوجية ، ذلك ان ضرورات نظرية وابستملوجية شتى قد تفرض عليه الدخول فى مجال ايديولوجى وتبنى دوره . ويكون ذلك التبنى احدى النتائج الضرورية لنمط الانتاج النظرى لهذا المجال الايديلوجى . لهذا ، رغم تباعد الشقة الفكرية والزمنية ، توجد دائما امكانية اقامة علاقات داخل نفس المجال ، علاقات تمس مضمون مادة تفكير كل مفكر او كل عصر ، بل تمس ما هو نظرى ، اى جانب الاشكالية الاساسية . ومن هذه الزاوية بالذات، سنتحدث عن الاشكالية الاختبارية النزعة لدى ستروس . اذ فى تفكيره نعثر على ضرب من ضروب اشكالية فلسفة القرن الثامن عشر الكلاسيكية ، تلك الاشكالية التى تسجل المعرفة فى البنية الواقعية للموضوع الواقعى ، أننا نجدها حاضرة حضورا عميقا ، مهما بدا هذا الراى غريبا . حقا اننى لااطابق مطابقة كاملة ايديلوجية القرن الثامن عشر الاختبارية مع الانتربولوجيا الستروسية ، ذلك ان نشاة هذه الانتربولوجية فى حياة ستروس وفكره كانت رد فعل ضد الفلسفة بجميع الوانها (2) ، الا اننا مع ذلك الح على ان الدور الفاسد الذى خلقه المجال الايديلوجى « لنظرية المعرفة » فى الفلسفة الغربية ، ذلك الدور الذى ينم عنه تاريخ هذه الفلسفة ، يتبنى للضرورة النظرية من طرف الانتربولوجية البنيوية التى ارادت أن ترقى به ، الى مستوى « لا فلسفى » يجعل منه مفهوما اساسيا لمشروعها العلمى ، لكنها ويا للاسف لم تخرج من الدور ، فرغم ما قام به ستروس من محاولة للبحث لنفسه عـ موقع خارج مجال مقفل ، فان ذلك لم يمكنه من الافلات من جذبه لانـه استعاد **هـذا المجال استعادة فى لون آخر ، علميا**

---

2 — اوزباس — البنيوية — ص 132 .

21 - Voir C.L. Strauss. tropiques - Paris. Plon. 1962. Chap. VI.

باتخاذ اشكاليته أساسا نظريا . و «ليس بالاعادة ، بل بغير الاعادة لهذا الجان يفلت المرء من هذا الدور. » (1)

ان ادراكنا لهذه الحقيقة ادراكا واضحا سيسهل علينا فهم حقيقة التنويمات المعاصرة للاشكالية الاختبارية وصور تقمص هذه الاخيرة لشتى الضروب والالوان المعرفية . واهم لون سنوجه نحوه اهتمامنا هو نظرية النموذج الاختبارية لدى ستروس ، من حيث هي ايديلوجية معرفة .

ثانيا ـ الاشكالية الاختبارية فى فكر ستورس :

مقصودى من هذا الباب ، كما اوضحت ذلك ، أن أبرز معالم نظرية المعرفة الاختبارية فى الفكر الوضعى عامة وفكر ستروس على الخصوص ، وهو مقصود بلزمنا الحديث عن نظرية النماذج ، تلك النظرية التى تظهر بمظهر علمى بريىء فى نظر الكثيرين مما يجعلهم لا يستطيعون التبين من غرابتها عن الانتاج النظرى للملم أعمق الغرابة . أننى لن أتحدث عنها الا بما هى ايديلوجية فى المعرفة ، تستوفى جميع خصائص المعرفة الاختبارية . اهمها **اللعب بلفظ « الواقع » أى ربط** المعرفة بالبنية الواقعية للواقع والموضوع الواقعى . فحديثى عنها اذن سيكون حديثا عن ايديلوجية فى المعرفة تقوم على أساس التباس وخلط بين مفهوم حقيقى للنموذج مثلما نجده فى الممارسة التقنية والذى هو نموذج بالفعل ، ومفهوم ايديلوجى للنموذج ، يتجاهل الفصلة الابستملوجية القائمة بين الممارسة التقنية والممارسة النظرية ، بين النظرية كنظرية وبين تطبيقها التقنى ، وقد أعاشهم هذا الطرح الايديلوجى لنظرية النماذج عن امكان ابصار **تصور علمى للنموذج** تمدنا به الممارسة النظرية لكل من الرياضيات والفيزياء ، لا يقوم على اللعب بلفظ الواقع كاتخاذه منطلقا للمعرفة فى مقابل ذات قادرة على صياغته فى نماذج ، بل فى حدود تستبعد الطرح والحل الايديلوجيين ، أى فى حدود تؤلف تصور

---

4 ـ لوى التوسير ـ قراءة رأس المال . ص 76 .

بنية المعرفة وتنظر اليها على أنها انتاج تصورات أو ممارسة نظرية تقوم على الانتاج النظرى للتصورات انتاجا لايلعب فيه الواقع بمعناه الاختبارى اى دور ، ذلك لان « العلم عملية فكرية ، أنه يحدد صورة من صور العرض ، لا تختلط بالعملية الواقعية ، ولا بعميلة البحث » (1). والعرض العلمى ليس يمثل ربطا لتصورات تصور الواقع ، كما انه ليس قولا فى « أشياء » واقعية ، بل هو عرض بواسطة التصورات وحسب ، وليس هنا اية ضرورة لان نتساءل عما اذا كانت التصورات واقعية لان كل قول علمى يتحدد بعلاقته ببعض معايير الصدق تنتجها الممارسة النظرية لذاتها . « فالدقة العلمية تقوم على حذف كل ما يتيح الخلط بين الواقع والفكر ، اذ أن اقامة عرض علمى لا تنحصر فى ايجاد مزيج منهما ، ولا فى استخلاص أحدهما ابتداء من الاخر ، او الخلط بينهما بمعنى آخر (...) اذ ان نظرية ما . هى تنظيم بعض التصورات فى قضايا ، وتنظيم بعض القضايا فى سلسلة من القضايا ، تتخذ لها صورة برهانية . واذن فالمسالة الجوهرية لا تنحصر فى معرفة ما اذا كنا سنمضى من الواقع او سنصل اليه : فما يجب القيام به هو ايجاد التصورات وصور الاستدلال ، التى تسمح بصياغة القضايا اليقينية ، وهذا هو السؤال الذى تطرحه العلوم جميعها من اللحظة التى تسلك فيها سبيلها الى الدقة . » (2)

التصورات فى القول العلمى هى وحداته الاساسية ، ما ينظمها هو الحركة الذاتية النظرية للعلم نفسها ، وهى حركة دقيقة خاصة به تخضع لآلية تنظيم نسيج وحدها لا تتعلق الا بمعايير خاصة بها . بهذا يمكننا القول مباشرة : أنها حركة « لها استقلالها الذاتي ، وينبغى تنسيقها بما لها من علاقة ببعض القوانين الخاصة » (3) ولا ينبغى النظر اليها على أنها وحدات تعكس

1 — بيير ماشرى — بصدد عملية العرض فى رأس المال . فى التوسير . قراءة رأس المال ص 257 .

2 — بيير ما شرى — نفس المرجع . ص 253 — 254 .

3 — بيير ما شرى — نفس المرجع . ص 245 .

واقعا ما عكسا آليا وتصوره . ان الكلمات فى القول العلمى ينبغى ان تأخذ على انها تصورات لا يمكن ان نقرا من ورائها « أشياء » بالمعني الساذج ، لا يمكن لها اطلاقا أن تكون قراءة شيء . القول العلمى ، سمته البارزه التى تميزه عن باقى الاقوال الاخرى انه غير مكتمل وغير ناجز ، فهو بعيد تمام البعد عن ان يكون نموذجا تصويريا لشيء ما . انه يمثل فى الحقيقة سوى نموذج ذاته . « القول العلمي يستمد قيمته من بعض انجازه الواقعى أكثر مما يستمدها من مظهره المنجز » (1) . نقص الانجاز وعدم الاكتمال هو ما نعثر عليه واضحا فى نظرية تاريخ العلوم ونظرية المنطق والرياضيات : فى هاتين النظريتين نكون أمام **تصور** علمى حقيقى للنموذج انتجه طرح العلم نفسه بعض مسائله العلمية وفقا لشروط خاطئة ليست تنصاع سوى لمعاييرها الخاصة بها . و هو تصور يتميز عن بعض الوان الفهم الاخرى لطبيعة النظرية العلميه كذلك الذى تشيمه الايديلوجية الاختبارية عندما توقف العملية الفكرية للعلم او المسلسل العلمى عند النموذج بوصفه يصور « شيئا » واقعيا ، عندما ننظر للنشاط العلمى على انه نشاط **وصفي** بواسطة نماذج ، بهذا تثبت شرائط العلم وتعد **حالة من حالات العلم نهائية** ، تجعل من حالة معينة من حالات المعرفة العلمية منظومة مطلقة . وهى بهذا تكون ايديلوجية علمية خالصة تريد أن تقتصر وظيفتها على « انشاء **صورة** ما هو منجز بذاته ونهائى » 2

هذه الفلسفة العلمية كما نرى ، شبت وانجزت فى ظلال الايديولوجية اختيارية ، فهى اذن ليست تمثل العلم الحقيقى بل العلم وقد تزيي فى مفارقة غريبة بزى الايديولوجية او التقنية . « بل انها بالاحرى تزيي المهارة العلمية ، بزى العلم ، على أساس

1 — بيير ما شرى — نفس المرجع . ص 246 — 247 .
2 بيير ما شرى — نفس المرجع . ص 251 .

قلب للمعرفة العلمية الى مهارة علمية » (1) سيصبح تصوير توقع ووضع رسم تمثيلي له ، وهذه نظرة ، كما نلاحظ ، تثوي وراءها خلفية ايديلوجية تقوم على اعتبار العلم جملة من المكتسبات والنتائج الموضوعية الناجزة والنظر الى القضايا العلمية على انها رسوم تصور الواقع . يقول فتجنشتين :« القضية لا تثبت شيئا الا بقدر ما هي رسم له » (2) . ومعنى ذلك ان العلم نموذج يفسح لنا عن الكيفية التي توجد عليها الاشياء ، وأن قضاياه « وصف لواقعة من الوقائع » (3) .

وهذه نظرة ، كما نرى ايديولوجية تتزيى بزى العلم « انها ايديلوجية العلم ذاتها (فالعلم سيستهويه دوما اعتبار ذاته منجزا) وقد حلت محل العلم وأخذت مكانه . وهو علم من وظيفه الايديولوجيه أن تحجب غيابه » (4) ان الايديولوجيه الاختياريه تتسوه حقيقة الوحدة الجدلية للعلم وتعتبره مهارة تقنية وبراعه عمليه تهدف الى صناعة نماذج تصور الواقع . وفي هذا الصدد يقول فتجنشتين : اننا نصنع لانفسنا رسوما للواقع » (5) ، لهذا فلن تكون للقول العلمي اى وظيفة أخرى سوى تصوير الواقع الخارجي . وهذا ما يجعلنا نعثر لدى الوضعيين الجدد على فكرة القول بوجود توازى بين الذات والموضوع ، الذات صانعة القضايا ، والواقع المصاغ من تلك القضايا ، فهو اذن توازى بين القضايا والواقع ، القضايا لن يكون لها معنى سوى ما يقابلها في الوجود الخارجي في حالة ما اذا كانت صادقة ، او لن يكون لها معنى ، في حالة ما اذا كانت كاذبة . « ان ما يمثله الرسم هو معناه » (6)

2) - L. Wittgaustein - Tractatus logico - philosophicus. Trad. franc., P. Klossousski. Gallimard. 1972. (4.03) - P. 76.
3) - Tractatus. (4.023) p. 75.
3 – بيير ما شرى – نفس المرجع . ص . 251 .
5) - Tractatus (2.1). p. 50.
6) - Tractatus - (2.222). p. 54.

الرسم يعني بقدر ما يقول شيئا يمس الواقع التجريبي والاختباري ، اى بقدر ما يقول شيئا عن الوجود الخارجي . فيجيء كونه ذات رسما له سواء كان هذا الرسم مطابقا للواقع او غير مطابق . معيار صدق الرسوم هو كونها شيئا تكون رسما له ، كما ان مبدا تمحيص صدقها يقوم على مواجهتها بالواقع الذى تحاول ان تكون رسما له . « ان الرسم نموذج للوجود الخارجي » (1) . وقد بدا من ان نقول ان هذه القضايا تعني كذا وكذا ، يمكننا ان نقول ان القضية تمثل شيئا من الامر او ذاك من امور الواقع . « ان القضية رسم للوجود الخارجي كما نعرف حالة الواقع التي تشير اليها وذلك اذا عرفنا معنى القضية » (2) . ومعنى انا نعرف حالة الواقع من خلال فهمنا للقضية ، التي هى رسم له يمثله ، لكن تأكد من صدق وصحة الرسم يقتضي منا مطابقته بحالة الواقع التي جاء يمثلها بحيث ان صدقه يكون تابعا لاظهاره الحالة التي توجد عليها الاشياء اى النحو الذى هى عليه ، كما ان كذب معناه يكون تابعا لاظهار الاشياء على نحو لا توجد هى عليه فى الواقع . « ان الرسم يمثل الشيء المرسوم من الخارج والزاوية التى منها يتم الرسم هى صوره تمثيلها) ومن تم فالرسم يمثل موضوعه المرسوم اما صوابا او خطأ » (3) .

يترتب عن ذلك ضرورة وجود الواقعة كعنصر ضروري يسند اليه القول العلمى ، خصوصا وأن الواقعة هى ما يمكن ملاحظته وادراكه و عليها يتوقف صدق أو كذب الرسم الذى يصورها أو يجيء رسما لها . الواقعة اسبق فى الوجود من النموذج الذى يكون صدقه او كذبه مرهونا بوجود أو عدم وجود الواقعة . « فى اتفاق الرسم او عدم اتفاقه مع الوجود الخارجى يكمن صدق الرسم أو كذبه . فلكي نكشف عما اذا كان الرسم صادقا أو كاذبا ، يلزمنا أن نقارنه بالوجود الخارجي — والرسم ان نظر اليه فى حد ذاته

1) - Tractatus - (2.12). p. 51.
2) - Tractatus - (4.021). p. 74.
3) - Tractatus - (2.173). p. 53.

وبمعزل عن الوجود الخارجي ، ما أمكنه أن يكشف عن أي شيء صادق أو كاذب ، اذ لا يوجد اى رسم صادقا أو كاذبا صدقا أو كذبا قبليا » (1). هكذا يكون معنى القضية لا يظهر الا بعديا ، أي باظهارها لنا الصورة الواقعية التي توجد عليها الاشياء و الكيفية التي بها ترتبط فيما بينها . وفى هذا الصدد يصرح فتجنشتين : « القضية تظهر معناها ، وهي تظهر لنا كيف توجد الاشياء ، اذا كانت صادقة ، كما تخبرنا بأن الاشياء موجودة على هذا النحو ، » (2) اى ان الرسم يصف ولا يؤول . فليست وظيفة الرسم ان يحول الواقع أو ان يعكس بمسلسل تحويل هذا الواقع ، بل أن يصيغه فكريا او أن يترجمه . ان معنى الرسم هو أن يكون له ما يقابله فى الوجود الخارجي فى حالة ما اذا كان صادقا . والعناصر التى يحتويها الرسم تقابل ، وهى فى الرسم ، ما هنالك من اشياء . « و كون عناصر الرسم يتصل بعضها ببعض على نحو معين ، انما يدل على أن الاشياء هى كذلك متصلة بعضها ببعض بالطريقة نفسها ، وهذه الرابطة التى تربط عناصر الرسم تسمى ببنيته ، وامكان قيام هذه البنية يسمى بالصورة الممثلة للرسم » (3) و ما يمكن أن يستفاد من هذا النص هو أن التطابق القائم بين الرسم و الواقع المرسوم ، يكمن فى وجود هوية بينهما ، اى علاقة تطابق ذاتى رغم الفرق القائم بين الفكر اولواقع ، فى النظرة الاختبارية النزعة لمفهوم النموذج ، يصبح هذا الاخير تابعا فكريا ومنطقيا للوقائع ، بحيث أن الطريقة تتشكل بها العلاقات بين رموز الرسم تكون هى نفس الطريقة التى تتشكل بها الاشياء فى الواقعة الخارجية ، وبحيث ان عدد الرموز لابد ان يكون فى القضية متمايزا بمقدار عدد الاشياء الموجودة فى الواقع الذى يمثله الرسم . والنماذج التى يصنعها العالم عقليا للاشياء تربطها بهذه الاشياء نفسها علاقة اتفاق ، وهو اتفاق يجعل النموذج نموذجا للاشياء ، والاشياء نموذجا للنموذج العقلى .

---

(1) - Tractatus - (2.222 - 2.225). p. 54-55.
(2) - Tractatus - (4.022). p. 75.
(3) - Tractatus - (2.15). p. 51.

هـا هنـا نجد انفسنـا وجهـا لوجـه مع الحلقة المفرغة أو الدور الفـاسد الذى تجرنا اليه نظرة فتجنشتين الاختبـارية للنماذج ، وهو دور من المستحيل الخروج منه كما لاحظنـا : وجـود الرسـم وصدقه أو كذبه مرهون بالوجود الخارجى ، اى يتوقف على وجـود الواقعة . لكن صحة الرسم هى التى تؤكد ايضا صحة وجود الواقعة « أنه اذا كانت القضية الاولية صادقة ، كانت الواقعه الذريه موجوده ، واذا كانت كاذبة ، لم يكن للواقعه الذريه وجود » (1) ومعنى هذا أن وجود الواقعة مرتبط بصدق القضية ومرهون به ، أيهمـا يكون اذن دليلا على وجود الاخر : الواقعة ام النموذج ؟ نلاحظ ان هناك دورا فـاسدا توقعنـا فيه فلسفة فتجنشتين وملسفة الوضعيه المنطقيه . وهو دور لا يمكن تفسيره الا فى ضوء الاشكالية الاختباريه النزعه التى تتحل اساس تفكيره . انها اشكالية تلزمنا الدخول فى مناوية مختلفه نمضى من الواقع لنصل الى النموذج ، ثم نمضى من هذا الاخير لنصل الـواقـع .

وقد تعمدت الاتيان بهذه الشواهد من الرسالة المنطقيه الفلسفية حتى يظهر جليا للعيان تشابهها الكبير مع ما سناتى به من شواهد من ستروس نستدل بها على استمراريه الاشكالية الاختبـاريه فى فكر هذا الاخير رغم ما يدعيه من حرص وسهر على الدقة العلمية نـاسيـا ان هذه الاخيرة تقتضى العدول عن اللعب بلفظ « الـواقـع » . لهذا يمكننا القول مباشرة : اننا مع ستروس نعثر على ايديلوجية علمية تعيد مجال الايديلوجية الاختبارية فى لون آخر ، اى تعيده علميا .

يعقد ستروس فى كتابـه الهـام « الانتربولوجيـة البنيويـة» (2) فصلا جوهريـا يمكننا اعتباره بمثابة نص ابستملوجى يحدد الخطوط العريضة والسمات البارزة لمنهج بنيوى فى الانتربولوجية . وهو نص

1) - Tractatus - (4.25). p. 94.
2) - C.L. Strauss - Anthropologie structurale. Pris - Plon. 1958 - chap XIV

رغم براعته ، نعثر فيه على زوج ايديلوجي يتخذ صورة مناوبة أختبارية / صورية ، تتخذ زي تعارض بين الملاحظة الوصفية للوقائع ملاحظة حيادية ، وبين لبناء والتركيب الفاعلين للنموذج . بتعبير أفضل يصبح العلم لدى ستروس منظورا اليه وكأنه تعارض قائم بين موضوع واقعي نبحثه بحثا وصفيا (الاثنوغرافية) وموضوع ضمني مهمته أن يقوم بتركيب وأنشاء نماذج تصور بنية الواقع . « الاثنوغرافية علم وصفي يمعن في وصف المجتمعات التي لا تعرف الكتابة ، باصالتها ومرديتها الجذرية . ولا يبدو هذا العلم ملزما بالاستناد الى تصور سابق لمعنى موضوعه » (1) . اما الاثنوجية ، فانها تنهج طريقة المقارنة قصد ان تتمكن من بلوغ هذا المعنى نفسه الذي تعجز عن بلوغه الاثنوغرافية . ويكون ذلك بالتعرف على فرديه كل ثقافة واعتبارها تمثل حلا منظما ثم مقارنتها بمجموعات اخرى مقارنة تسمح لنا بان ندرك انها كمجموعة تاخذ معناها في علاقتها مع مجموعات اخرى ، اي في حقل من الفوارق والتباينات والمتشابهات . هذا الحقل البنيوي يمكن تركيبه في نماذج . وفي هذا الصدد يقول ستروس . « الاثنوغرافية والاثنولوجية ، توافقان على التوالي ، مرحلتي بحث واحد يفضي في نهاية المطاف الى تركيب نماذج ميكانيكية » (2) تركيب النماذج ، يجب أن يكون تركيبا يحترم خاصية المنظومة بحيث يرتب الفوارق القائمة بين مجموعات مختلفة ترتيبا يبرز تقاربها . يجب أن يكون ايضا تركيبا يسمح لنا بمراقبة النموذج نفسه ، وذلك بأن يمكننا من « التنبؤ بالكيفية التي سيرد بها النموذج اذا ما غيرنا أحد عناصره »(3) لهذا ينبغي تركيب النموذج على نحو على نحو يصبح معه صورة نظرية نسقية تعكس لنا ما هو جوهري في الواقع ، أي تزيل الغطاء والغشاوة

1 — لوقادهوش — موقع الانتربولوجية البنيوية ومواقفها — مجلة لارك — العدد 26 — الفصل الاول — 1967 . مترجم بالقسم الثاني من الترجمة العربية لكتاب أوزياس — البنيوية وهو قسم مخصص للبحوث المتفرقة . ص 374 .

2) - Strauss - Anthropologie structurale. p. 313.

3) - Ibid. p. 306.

من هذا الاخير وتصقله لكى يقدم لنا الحضور الواقعى للماهية الخالصة والعارية . « يجب أن يشكل النموذج بحيث أن أستخدامه يدخل فى حساب جميع الوقائع الملاحظة » (1) ويدل دلالته ، تستند الى عكس ما هو مرئي وسطحى من الواقع ، بل ما هو خفى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ما يوجد تحت القشرة ، اى النواة غير المرئية ، وهو شىء كما نعلم مرهون ببراعة الانتربولوجي ومهارته العمليه والتقنية ، اى بقدرته علي توقيع نموذج ترقميا يضع فى حسابه كل التفاصيل والجزئيات ، اى ترقيما يسمح بازالة عتمة الواقع ويمكنه من ان يفصح بذاته عما هو جوهرى فيه وان يظهر معناه . وان مدى قدره النموذج على عكس معناه واظهاره ليتوقف بالضرورة على القدره الابداعية للانتربولوجى على حذف ما هو غير جوهرى فى الواقع ، وعلى نزع كل ما يشوبه . ان النموذج يمثل الواقع وقد فصل من شوائبه ، فهو بهذا المعنى لا واقعى لا واقعيه صورية تكمن فى كونه قد نقى من مما يعلق به من ادران الواقع غير الحقيقه اى من ما ليس صوره او ماهيه .

و ستروس بهذا ، يحيل وظيفة المعرفة العلمية بكاملها الى انشاء نماذج ، ورغم الحاحه بالمقابل على أن النموذج ليس رسما واقعيا للواقع الاختبارى ، وعلى ان مفهوم البنية الاجتماعية لا يرجع الى الواقع الاختبارى ، بل الى النماذج التى نبنيها انطلاقا من هذا الواقع » (2) ، فانه لم يفعل سوى أنه انتصر لاحد طرفى مناوية اختبارية النزعة : اى طرفها الصورى خصوصا عندما يؤكد ان قيمة البحوث الانتربولوجية البنيوية تكمن فى قابلية البنيات لان « يعبر عنها عن طريق نماذج يمكن المقارنة بين خصائصها الصورية وذلك بغض النظر عن العناصر المكونة لها ، وان مهمة البنيوى هو أن يدرك الوحدة والاختلاف بين مستويات الواقع التى تتمتع بقيمة أساسية فى الاعتبار الذى يعتبره هو ، وبعبارة أخرى بين المستويات التى يمكن تمثيلها

1) - Ibid. p. 306.
2) - Ibid. p. 305.

بواسطة نماذج ، مهما كان طابع هاته النماذج »(1) . وبهذا فهو لا يخرج من الاشكالية التى أقامتها مسألة المعرفة التى تقيم تقابلا بين الواقع كمادة أولية ، وبين الفكر كصياغة نماذج باستعمال المادة الاولية ، وتقول بأن المعرفة تجريد ، تجريد اختبارى يستخرج من الموضوع الواقعى المعطى ماهيته ، فهى اذن توجد متضمنة واقعيا فى ما هو واقعى ، وكأنها جزء من أجزائه ، أما الجزء غير الجوهرى فمتضمن فى الجزء الاخر اما هو واقعى .

فى هذا الفهم الاختبارى للمعرفة ، والذى نجده مماثلا فى فكر ستروس ، تكون الوظيفة الوحيدة للمعرفة « هى فصلها فى الموضوع بين الجزئين الموجوردين فيه ، وهما ما هو جوهرى ، وما ليس جوهريا ، بلجوئها الى طرائق خاصة غايتها **حذف الواقع غير الجوهرى** لكى تبقى الذات العارفة وجها لوجه أمام الجزء الثانى من جزئى الواقع الذى هو جوهره ، والذى هو ذاته واقعى »(2) . لهذا فعملية التجريد تقوم فى أساسها على تطهير الواقعى وتصفيته ، أى حذف لجزء مما هو واقعى من سبيل ابراز الجزء الاخر واستخراجه كجوهر لا واقعى.

هنا لابد من ابداء بعض الملاحظات الكفيلة بابراز الطابع الايديلوجى لمفهوم النموذج فى استعماله من لدن ستروس (3) . واول ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن العبارات التى يستعملها ستروس عبارات ملتبسة غاية الالتباس ، والتباسها ذلك يفصح فى الحقيقة عن الدور الفاسد الذى أوقعه فيه المفهوم الاختبارى للنموذج ، فهو يذهب الى أن النماذج تبنى وتنشأ « انطلاقا » من الواقع الاختبارى (4) ، لكنه ما يلبث فى موضع آخر ، أن يصرح أن « النموذج يجب أن يشكل بحيث أن استخدامه يدخل فى الحساب جميع الوقائع الملاحظة » (5) والكلمة

1) - Ibid. p. 311.

2 — التوسير — قراءة رأس المال — ص . 49 .

3) - A. Badiou. op. cit. p, 18.

4) - Strauss. Ibid. p. 305.

5) - Ibid. p. 306.

التى ينبغى ان تسترعى نظرنا هنا هى **يدخل فى الحساب** ، ومعناها : يدل دلالة وصف وتفسير . لكن ، كيف يمكن « للوقائع الملاحظة » التى ركب النموذج ليكون رسما لها والتى هى فى حالة من العتمة والضبابية والتباين تجعلها مختفية وراء شوائب تخفى ما هيتها ، أن تنتهى بنا الى شىء قادر على أن يدل على استخدامها دلالة وصف وتفسير ؟ اذا كانت الاثنوغرافية ملزمة بالاتستند الى أى تصور مسبق لمعنى الوقائع الملاحظة ، فان ذلك يعنى أن الوقائع الملاحظة خارجا عن كل تدخل نظرى لا تفلح فى ان تظهر معناها . وهذا ما عبر عنه ستروس عندما أكد أن « القاعدة الاساسية ــ بل الوحيدة ان جاز القول ــ هى ان جميع الوقائع يجب ملاحظتها ووصفها ملاحظة ووصفا دقيقين بحيث نفوت الفرصة على الاحكام النظرية المسبقة حتى لا تمس من طبيعتها واهميتها » (1) وأن معنى الوقائع لا يمكن ان يتجلى الا فى مرحلة ثانية عندما نقارن مجموع الوقائع الملاحظة ونعطيها معنى فى علاقتها بالكل فالمعنى لا يظهر الا ببناء النموذج وتركيبه تركيبا صنعيا هكذا ينقل ستروس الى مستوى الممارسة النظرية للعلم ، أى الى مستوى القول العلمى ، تعارضا اختبارى النزعة بين مرحلتين مزعومتين داخل المنهج التجريبى : هما مرحلة الملاحظة ومرحلة التجريب ، فى ميدان الانطربولوجية البنيوية ، توافق هتان المرحلتان المزعومتان مرحلتين مزعومتين هما : مرحلة اثنوغرافية وصفية تمعن فى وصف المجتمعات ، يكون عمل الباحث فيها عملا ميدانيا يتقصى الوقائع ، ثم مرحلة اثنلوجية يكون فيها العالم ملما بخبرات نظرية يبسط منظومة الفوارق والمشابهات فى نموذج ، تلك المنظومة التى تكشف له البنية الجوهرية للواقعة المدروسة . على هذا النحو ، يعيد ستروس تقليدا وضعيا مشهورا فى فلسفة العلوم يقوم على التمييز المبتسر بين مرحلة الملاحظة اعتقادا أنها مرحلة تقصى ورؤية ، يكون فيها الذهن يقظا مستوفر النشاط والفاعلية يبحث عن العلاقة القائمة بين الوقائع

1) Ibid. p. 307.

الملاحظة أى عن الروابط الضرورية بين الاشياء . ما يؤكد لنا هـذا التقليد وهذه الاعادة من طرف ستروس تصريح شهير له يقول فيه : « تنتقى (البنيوية) الوقائع المجتمعية من التجربة لتدخلها الى المخبر، وهناك تحاول أن تمثلها فى شكل نماذج ...»(1) وهو تصريح كما بظهر ، رغم تأخره الزمنى عن نص « الانتربولوجية البنيوية » ، لا يختلف عن مواقف صاحبه السابقة ، و بامكاننا أن نمثر على أقوال وتصريحات تشابهه مشابهة كبرى ، منها انه عنون احدى فقرات النص الذى نحن بصدده على النحو التالى : « الملاحظة والتجريب » ، يقول فيه مباشرة : « سنميز دائما بين هذين المستويين : فملاحظة الوقائع ووضع المناهج التى تسمح باستعمال هذه الوقائع فى تركيب نماذج ، لايختلط ابدا بالتجريب على النماذج ذاتها . وانى لاقصد « بالتجريب على النماذج » مجموع الطرق التى تسمح بمعرفة الكيفية التى سيرد بها نموذج ما فى حالة ما اذا طرأت عليه تغيرات . . . »(2)

الفكر الستروسى ، اذن ، ن حيث هو لون لاعقلانى وتنويع ايديلوجى ، يقيم هوة مصطنعة بين الظواهر والمناهج معتبرا هذه الاخيرة صورا مرآوية لتلك ، وهو فى ذلك ينطلق من اعتقاد خاطىء اساسه أن النظرية العلمية ليست سوى تفسيرا للوقائع الملاحظة يقوم على البحث عن الارتباطات القائمة فيما بينها وتنسيقها دون أن يتعدى هذا التنسيق المجال التحليلى الضيق الذى خطته النزعة الاختبارية. فى حين أن الملاحظة فى العلم ، تتم فى ضوء نظرية سابقة ، وانطلاقا من شروط نظرية لامكان الملاحظة ذاتها ، فهى بهذا قول على نظرى اتخذ صبغة مادية ، وما يسمح بامكانها هو البنية النظرية الجاهزة التى فى ضوئها نؤول الظاهرة الملاحظة . فهذه اذن تكون موجهة من خلف ومتحددة تحديدا نظريا سابقا . يقول بشلار : « أن الملاحظة ، سلفا ، تحتاج

---

1) - Le nouvel observateur, n° 115, Janvier 1967.

أورده . عبد السلام بنعبد العالى ـ حول المنهج البنيوى ـ اقلام ـ عدد 9 ـ 10 . يوليوز 1975 . ص 62 .

2) - Strauss. Anthopologie structurale p. 307.

الى جملة احتياطات تقود الى التفكير قبل النظر وهى تصحيح على الافق الرؤية الاولى ، على نحو أن الملاحظة الاولى لاتبدو أبدا هى الملاحظة الجيدة . ان الملاحظة العلمية هى على الدوام ملاحظة تحمل طابع المناظرة ، انها تؤيد او تبطل نظرية سابقة ، أو اطارا ممتعا ، او مستوى ملاحظة ، انها تظهر حين تبرهن ، وهى تصنف الظواهر ، وتتعالى على المباشر ، وتعيد بناء الواقع بعد اعادة بناء أطره العامة (...) ومن البين ان الادوات ليست سوى نظريات متجسدة ، ومنها تخرج ظاهرات متسمة بالطابع النظرى من كل جانب » (3) . فى العلم لايمكن العثور على ملاحظة يكون غرضها الرؤية والرؤية فحسب ، كل ملاحظة الا وتكون مسبوقة بمشروع نظرى درس دراسة انطلاقا من نظرية ما . فالملاحظة بهذا المعنى ليست بداية للمعرفة بل مفعول معرفة . والشروط التجريبية هى شروط نظرية لاجراء التجريب الملاحظة العلمية وليدة اعداد نظرى لاغنى عنه ، وهو أمر يتجلى فى أبسط أشكال الفكر العلمى وأدناها . وإن الوهم الاختيارى ليخطأ عندما يعتقد أننا فى العلم نظهر الواقع اظهار بأن نعطى صورة مرآوية له ، اننا فى العلم نبرهن على الواقع وكل ملاحظة لا تكسب مدلولها الحقيقى الا عندما تلحق بنظرية سابقة ، وهذا ما يضفى الخصوبة الموضوعية ، العلم لاينشأ من الملاحظة المباشرة ، بل بالرغم منها ، وتفسير الوقائع لا يولد باملاء من الوقائع نفسها ، بل من شروط نظرية سابقة محددة تحديدا سالفا بالمستوى المعرفى وبالبنية المعرفية . من هذا اذن ، يتجلى لنا فساد الدور الاختبارى ، ذلك الذى يجعل المعرفة ، كى تقوم ، ملزمة وفى حاجة الى خبرة وملاحظة ويعطى كدليل على صحتها مدى مطابقتها للواقعة الملاحظة وقدرتها على ادخالها فى الحساب . فالواقعى يصبح اذن هو مبرر المعرفة ومسوغها . والشىء الاساسى الذى تتناساه النزعة الوضعية هو أننا فى العلم ، لكى نعرف ، لا نكون ملزمين بالضرورة ، بالرجوع الى الملاحظة ، بل بالرجوع الى نظرية ، فالمعرفة تستوجب المعرفة وتتطلب مادة معرفية سابقة تكون بمثابة

3 ــ بشلار ــ الفكر العلمى الجديد . ص 12 ــ 13 .

الى جملة احتياطات تقود الى التفكير قبل النظر وهي تصحيح علـــى مادتها الاولى ، في حين نجد ستروس يطلب من الباحث في المرحلــــة الاثنوغرافية ، ان يكون ذهنا بلا بنية او لوحة بيضاء لم يسبق لها أن تعرضت لاى تهيئة او تنشئة نظرية .

في هذه النظرة العلمية لطبيعة الممارسة العلمية « سينظر الى العلم على أساس انه مفعول ممارسة ، لا على أنه تمثل » (1). غير ان ابستملوجية النماذج تعجز بطبيعتها عن احترام هذه الخاصية للقول العلمي ، اى خاصية اعتبار هذا الاخير برهنة خالصة تقوم على أساس اقامة عرض بواسطة التصورات ، اقامة تستبعد عملية الواقع بشتى صورها وتتخذ صورة قول نوعي لا يعد قولا بالرجوع الى « وقـــائع » تسنده ، بل الى تصورات رتبت ترتيبا محددا من طرف منظومة القول نفسها . اذ مع ستروس نلاحظ وجود اختلاف وفارق ماهوى بـــين الملاحظة الاختبارية للواقع وبين الخلق الارادى الاتفاقى للنماذج المصورة للواقع فالنموذج من هذه الزاوية سيصبح رسما اختياريا مناسبـــا ، ووسيلـة كلاميـــة لتصوير الاشياء تكون ملاءمتها ونفعها هي الدليل على صدقها . فهي اذن حاصل ممارسة ذاتية شخصية ، حاصل مهـــارة وبراعة تقنية . لهذا فنحن امام امكان وجـــود نمـــاذج **عديدة ومتفاوتة القيمة** من حيث قدرتها على الرسم والتصوير، لاشيء يمنعنـــا من أن نقيم نماذج متعددة من أجل تفسير ظاهرة واحدة بعينها ، لتمثيل الواقع او هي صور ولوائح يمكن الاستعاضة عن احداها بالاخرى ، لا تطلعنا بذاتها على أية حقيقة بالمعنى التام المطلق . ان السمة البارزة التـــى تطبع النماذج هي اعتباطيتها ، اى كونها ليست تنتج من طرف اى ممارسة برهانية ، مايؤدى الى ظهورها هو الواقع نفسه الذى تريد ان تكون رسوما له. اذا كان الامر كذلك فان معايير صدق النموذج لن تكون معايير علمية انتجتها الممارسة النوعية للعلم بل هي معايير ذاتية اتفاقية. ذلك أن العالم يحاول دائما اختيار الانسب منها الايسر مثلما يختـــار الصانـــع

---

1) - A. Badiou. op. cit. p. 19.

الادوات الانسب لعمله . لذا فاختيارنا النموذج الانسب والايسر نراعى فيه الجانب النفعى العلمى . انطلاقا من الواقع نفسه نحكم على النموذج ان كان انسب ام لا معيارنا فى اختيار النموذج الانسب هو ملاحظتنا ان كان فى استطاعته أن يمثل الواقع المعكوس احسن تمثيل. بهذا تعود النزعة الاختبارية الى الظهور ، ذلك ان بين نماذج كثيرة صنعت لنفس الواقعة ، نختار منها ذلك الذى يستطيع أن يمثل الواقع تمثيلا احسن من باقى النماذج الاخرى . فالقول الفصل هنا يعطى « للواقعة » اذ هى التى باستطاعتها أن تحدد اقرب النماذج اليها يقول ستروس : « سيكون النموذج الاحسن دوما هو النموذج **الحقيقى** ، اى النموذج الذى وان كان اكثر بساطة ، فانه يستوفى شرطا مزدوجا وهو الا يستخدم اية وقائع اخرى سوى تلك المعينة بالملاحظة ، وأن يدخل فى حسابه جميع الوقائع » (1)

ينتج هذا التصريح دورا فاسدا : فمن السؤال المتعلق بطبيعة النموذج، لا نجد من جواب سوى انه موضوع صنعى انشىء «ليعطى شرحا» لجميع الوقائع الاختبارية المعنية بالملاحظة ، لكننا عندما نتساءل عما هو معيار صحة الشرح الاحسن ، او كيف يكون النموذج نموذجا حقيقيا ، لانجد من جواب سوى أن النموذج الحقيقى هو ذلك الذى « يدخل فى حسابه » جميع الوقائع وهو الذى يمتاز ايضا بالبساطة واليسر .

عندما نمعن فى هذا الدور ، نلاحظ المناوبة المحرجة التى الجز اليها ستروس ، والتناقض الصارخ الذى جرته عليه : انه عن سؤال : ما معيار النموذج الاحسن ، لا يقدم لنا اية اجابة . ذلك انه يسقط سؤالنا فى الايديلوجية الاختبارية لكى يقدم لنا له اجابة ايديلوجية ، انه بدلا من البحث عن جواب ، يقدم لنا **ضمانا** ، ضمانا من حيث الواقع الا وهو اليسر والنفع عملا ، بحيث يصبح النفع عملا هو مقياس حقيقة

1) - Anthonologie sturucturale, p. 308.

الاشيــــاء . فى جو ايديلوجية علمية اختبـــارية يفقد فيهـــا العلم وحدته الجدلية وانغلاقه الضرورى ، يفقد أيضا تماثل المعقول ، ويصبح العلم هو مــا **نصطلح عليه** او فى لغة الذرائعية **النجوع عملا** اذ هو الذى **يوجه** المعرفة العلمية نحو اختيار تصوراتها . ومن الهام جدا فى هذا اصدد أن نقول : ان المعيارين اللذين يرى ستروس ضرورة توفرهما فـــى النموذج وهما : **البساطة والشمول** ، أى أن يكون النموذج تبسيطا للواقع يسمح لنا بادراك البنية الشمولية لهذا الواقع ، معياران انتجتهما الاشكـــالية الاختيارية لفلسفة التمثيـــل (1) فى القـــرن الثامن عشر ، أى **اختياريـــة العصر الكلاسيكى** التى سطر خطوطها العريضة الاستاذ (ميشيل فوكو) فى كتابه **الكلمات والاشياء** . الكلمات صوره للاشياء من خلالها نقرا الاشياء والرابطة بين الاشياء والكلمات رابطة **اتفاقية** أى اننا نختار الكلمات التى بها نظهر الاشياء ونفصح عنها . لهذا فمنظومة الافصـــــاح ، أى نظـــام الرموز فى العصر الكلاسيكى ، منظومة ثنوية Binaire تعكس العلاقة بين نظامين متقابلين : نظام الرموز ونظام الاشياء . ومعيـــار ارتباط الرموز ، أى الكلمات ، بالاشياء نظام تعسفى ، اساسه الاتفاق والاصطلاح ، وليس الضرورة العلاقية الدلالية بين الدال والمدلول توجد علاقة استقلال وتمايز ، لا علاقة اتصال وتجانس . الدال يصور المدلول ويرسمه ، فهو مرآته التى يتجلى فيها . والدال لايتخذ معناه الا مـــن حيث كونه يدل على شىء مـــا واقعى ويشير اليه . أما الدلالة والمعنى ليس لهما من وجود سوى أنهما تعكسان ارتباط رمز دال بشىء مـــا يكون مرجعه ومرتكز اسنـــاده . **أن معيـــار الدلالة فى العصر الكلاسيكى** هو التمثل . فلسفة التمثيل المرآوى هذه ستصبح هى الاشكالية الاساسية للنزعة الاختبارية من القرن الثامن عشر وقد اقترن ظهورها فى الفكـــر الغربى بانقضاء عصر النهضة أى أنقضاء القرن السادس عشر الذى سادته لحظة معرفية كان ينظر فيها للاشياء على أنها تحمل نثرا أو انها هى والنثر شىء واحد، فالعالم نثر ، اشياؤه كلما ت، ونظام اشيائه يشكل

1) - Représentation.

قولا . وأن كل قول من الاشياء ليس قولا عن الاشياء ، بل هو قول على قول الاشياء . الاشياء تحمل فى ذاتها وفى احشائها دلالتها ، والعلم يجب أن يكون قراءة لدلالة الاشياء ، أى للاشياء ككلمات . وهى قراءة تقوم على كشف روابط التشابه الثاوية خلف الاشياء ، اى كشف شتى الوان التوافق المؤدية الى ارتباط الاشياء ، الوان التنافس المؤدية الى تنافرها ، الوان التماثل المؤدية الى تقارنها ، واخيرا الوان التعاطف المؤدية الى تجاذبها وتحابها . لا ينبغى أن نفهم من هنا أن المعرفة فى القرن السادس عشر كانت تبتغى اكتشاف روابط التشابه الواقعية التى قد تكون مكتوبة فوق الاشياء . ان التشابه مثالى ، ما يسمح بقيامه ليس تجانس الاشياء تجانسا ماديا مرئيا ، بل تجانسها تجانسا مثاليا . أى مشاركتها فى دلالة مثالية تجعلها ترتبط فيما بينها على نحو ما ارتباطا ضروريا فى هذا الاطار نفهم ، لم لم يفرق القرن السادس عشر فى العلم بين المعرفة الوضعية والمعرفة السحرية ، من حيث أن هذه الاخيرة كانت محاولة لكشف النظام اللامرئى الذى حسبه تتشابه الاشياء وتتنافر ، وتفسيرا لمدلول الاشياء لا يراعى كيفية ارتباطها الواقعية ، بل ارتباطاتها اللاواقعية ، أى اكتشاف قولها الحقيقى أو التعليق على قول يريد ذلك . فى هذا المنظور ، تصبح الاشياء غير مستقلة عن رموزها ، بل هى والرموز شيء واحد ، كما تصبح العلاقة بين الدال والمدلول علاقة ضرورة وعلاقة تشابه . الرمز يدل دلالة مثالية ، لا بالاحالة الى مستند مادى ، بل الى علاقة تشابه ، أنموذج تشابه ، « انه يدل بقدر ما تربطه بالمدلول رابطة تشابه »(1) . ولا بد من الاشارة هنا الى أن اللحظة المعرفية للقرن السادس عشر كانت لحظة افلاطونية اصطبغ فيها العلم عامة بصبغة مثالية ترى أن الاشياء رموز تحمل معنى فى ذاتها وأن معناها ذلك ينحدر من مثالها الذى تشارك فيه ، أى من مشابهتها بهذا

1) - M. Foucault. Les mots et les choses. Galimard 1968. p. 44.
2) - Ibid. p. 57.

المثال — لهذا فمنظومة الرموز فى هذا القرن كانت منظومة ثــلاثيــة . Ternaire ، تعكس اقتران ثلاثة عناصر هى : الدال والمدلول وعلاقة الدلالة التى تسمح بتشابههما (2). بهذا كان « التشابه فى معرفة القرن السادس عشر يمثل ما هو شمولى ، وفى نفس الوقت ما هو اكثر قابلية للرؤية ، الا اننا نكون ملزمين بالسعى الى كشفه ، اذ انه يمثل هو اكثر خفاء وما يحدد المعرفة . » (1).

المعرفة فى مفهوم القرن السادس عشر تفسيرية ((Herméneutique) تقوم على كشف المعنى والمدلول وراء الرمز ، الاشياء نفسهــا رموز . فالتفسيرية بذلك تصبح « مجموع المعارف والتقنيات التى تسمح بجعل الرموز تتكلم وتظهر معناها (...) والبحث عن المعنى يتم بابراز ما يتشابه» . (2) المعرفة شرح فلسفى لقــول (Exégèse) ، لقــول الطبيعة نفسها من حيث هى نظام رموز ، وشرح للاقوال التى قيلت فى قول الطبيعة نفسها « فهي اذن معرفة يجوز لها ويلزمها ان تتخذ صورة تكديس لا نهائى لاثباتات يستدعى بعضها الاخر » (3) . والاقوال يمسك بعضها بعناق البعض الاخر . لهذا « تقوم المعرفة اذن على احالة لغة لغة ، على اعادة الالتحام و الوحدة الاصلية بين الكلمات والاشياء ، على جعل كل شيء يتكلم ، اى على خلق قول ثانى شارح فوق جميــع العلامات ، ان الغرض الخاص بالمعرفة ، ليس هو الرؤية او البرهنة، بل التأويل (...) فاللغة تملك فى ذاتها مبداها الداخلى للتكاثــر» (4) . فى القرن السادس عشر لم يكن ينظر للطبية ولاشيائها على انها تمثل نظام طبيعة فى مقابل الكلمات باعتبار هذه الاخيرة تمثل نظام ثقافة ، بل اعتبرت الاشياء رموزا او كلمات ذات دلالة ومعنى فهى نظام ثقافة او هى قول ، لذا اتحدت الكلمات بالاشياء اتحادا قويا اتخذ شكل قول لم تكن فيه الاشياء بمثابة مراجع ومرتكزات للكلمات ، ولم تكــن فيــه الكلمات تحصل على معناها بالاحالة الى الاشياء . فى هذا القول كانت

1) - Ibid. p. 44.
2) - Ibid. p. 44.
3) - Ibid. 45.
4) - Ibid. p. 55.

الاشياء نفسها لا تتخذ معناها الا بالاحالة الى منظومة تشابه وتماثل .

غير أن ظهور العصر الكلاسيكى (القرنان السابع والثامن عشر) ادى الى حدوث تطور جديد وتحول عميق فى بنية المعرفة . فظهرت لحظة معرفية جديدة ، كان من جرائها ان طرحت مشاكل جديدة لم تكن معروفة فيما سبق . « ابتداء من القرن السابع عشر ، سنتساءل كيف يرتبط الرمز الدال بما يدل عليه . انه سؤال سيجيب عنه العصر الكلاسيكى بتحليل التمثيل (...) أى ستنفصل الاشياء عن الكلمات وستصبح مهمة العين هى الرؤية والرؤية فحسب (...) كما ستتحول مهمة القول الى قول ما هو كائن دون تحديه » (1) . القرن السادس عشر كان يعتبر الرؤية قراءة ، والاشياء قولا ، ولا يفرق بين الكلمات والاشياء ، بين الطبيعة والثقافة . اما العصر الكلاسيكى فقد زعم وجود لحظتين داخل عملية المعرفة : لحظة رؤية الاشياء . ثم لحظة استعمال الكلمات لاظهار الاشياء والافصاح عنها . فاذا كانت معرفة القرن السادس عشر فى أساسها تأويلا وشرحا ، فان معرفة العصر الكلاسيكى ستتحول الى اسباغ صفة النظام والترتيب على الاشياء ، انها ستتحول بكاملها الى تصنيف ، وهو ما يعرف بالمنهج التحليلى : تحليل الاشياء وصياغتها فى كلمات ، وهو المنهج السائد فى النزعة الاختبارية التى لم نقم بهذا الاستطراد الا من اجل ابراز جذورها الفلسفية العميقة خصوصا عندما يدور الحديث حول لون من الوان ظهورها فى العلم ، عندما يدور النقاش حول نظرية النموذج الاختبارية . وحتى نؤيد صدق دعوانا ، ناتى بنص لستروس يرد فيه على سارتر الذى ذهب فى « نقد العقل الجدلى » الى وجود هوة بين العقل التحليلى والجدلى . يقول ستروس : « ليس العقل الجدلى فى نظرنا **شيئا آخر سوى العقل التحليلى** » (معلم عليه فى النص) (3) .

يتجلى لنا بكيفية لا نزاع فيها ، ان المعيارين اللذين رأى ستروس

1) - Ibid. p. 58.
2) - C.L. Strauss. La pensée sauvage. Paris. Plon 1962. p. 326.

ضرورة توفرهما فى النموذج ، هما معياران افرزتهما فلسفة العصر الكلاسيكى التمثيليه ، يجعلان من العلم لا ممارسة نظريـة جدليـه ، « بل صياغه لصوره حقيقيه مطابقه » (1) . فنظريه النماذج فى جوهرها مناهضة لنظريه الممارسة العلميه ، باعتبار ان هذه الاخيره ، كما نعلم ، « عملية تحويل تنتج موضوعا خاصا ، هو المعرفه . فبواسطه تصورات «نظريه» ما ، او تعميم من الدرجه الثانيه يحول المعطى ، اى التعميم الذى انتج من قبل بالممارسة السابقة (تعميم من الدرجه الاولى) ، تنتج على هذا النحو ، تصورات جديد: أى معرفه جديده (تعميم من الدرجه الثالثـه) (2) . لهذا فالمقصود بقولنا ان الممارسه العلميه تحـول موضوعها ليس يعنى أنها تنقله من مستوى الى مستوى اخـر نقـلا تصويريا تمثيليا ، بل انها تحول الموضوع من موضوع واقع الى موضوع معرفه ، من موضوع واقع مشخص الى موضوع هو نتاج الفكر ، اى مشخص فكرى . حركة انتاج كل منهما متميزه ومنفصلة ، حركة انتاج الموضوع الواقعى تتم بكاملها فى الواقع ، وتتحقق وفقا لنظـام نشـوء واقعى . أما حركة انتاج موضوع المعرفة ، فتتم بكـاملهـا فى المعرفة وتتحقق وفق نظام آخر ، حيث لا تسود الا التصورات . المعرفة تتـم بكاملها فى الفكر ، وليس المقصود بهذا الاخير هنا ذاتا متعالية او وعيا ايجابيا يواجه مادة عالم واقعى سلبية ، بل الفكر من حيث هو جهـاز فكرى ، أى نمط محدد ، حددته المعرفة السائدة والسـابقة . الفكـر كنظام محدد من طرف شروط الممارسـة النظرية ، يحدد للذات مكانهـا ووظيفتها فى انتاج المعارف .

ان مفهوم التحويل فى النظرية الاختبارية للنماذج ، يقول بعمليـة تحويل لا تحول شيئا فى الحقيقة ، خصوصـا وانه يرى معيـار صدق النموذج فى تمثيله تمثيلا بسيطا وصادقا ، اى فى ادخاله فى حسابه جميع

1) - A. Badiou. op. cit. p. 20.

5 — جاك رانسيير — مفهوم النقد ونقد الاقتصـاد السيـاسى — فى قراءة رأس المـال ص 134 — 135 .

الوقائع الملاحظة انه ينظر للتحويل على انه تجريد وترجمة نتخلص فيهما مما يشوب الواقع ويشوش انجلاءه ونضارته . « ان النموذج لا يقدم في الواقع اى برهان . ثم ستجه عمليا برهنه ، بل انشيء فحسب في مقابل الواقع . ضمن هذا النظام يفهم لماذا ، في لحظات البحث غير الواثق من نفسه تتكاثر النماذج « تكاثر النمل » (1) . اذ لنفس الظاهرة يمكن تصور نماذج عديده نختار من بينها الانسب والايسر . وهذا ما اشار اليه ستروس نفسه بالقول : « يمكن بالفعل تصور كثرة من النماذج المختلفة ، الا انها تكون ملائمة ، ملاءمة متباينة السبل لوصف وتفسير زمره من الظواهر . لكن احسنها سيكون دائما هو النموذج الحقيقي»(2)

يطلب منا ستروس في المرحلة الاتنوغرافيه ان لا نستند الى أى تصور مسبق لمعنى الموضوع الملاحظ ، اى الا نحول الموضوع الواقعي الملاحظ والا ندخل عليه اى تعديل او تركيب ، باعتبار أن التركيب مرهون بالمرحلة الاثنلوجية . « الاثنوغرافية ... توافق المراحل الاولى للبحث اى الملاحظة والوصف والعمل الميداني (...) وتمثل الاثنلوجية بالنسبة الى الاثنوغرافية خطوة أولى نحو التركيب » (3) . مفرقا بذلك بين المادة الاولى للعلم التي يعتقد أن الملاحظة المباشرة تمدنا بها : اى مادة الحدس الحسي وبين مادته الثانوية التي يظن أنها تجريد تركيبي للحدس الحسي واضننا في غنى من هذا المقال ، اجتنابا للتطويل ، عن التذكير بأن المادة الاولى للعلم ليست واحدة ، انها ليست والموضوعات المادية شيئا واحدا . انها تتخذ صورا مختلفة أشد الاختلاف وفقا لدرجة تطور المعرفة . ان المادة الاولى التي استخدمها ارسطو في اقامة علمه بعيدة تمام البعد عن لمادة الاولى عند جاليلى ... لان المادة الاولى تشكل جزءا من شروط انتاج كل معرفة ، يصيبها النضج باستمرار بنفس الكيفية التي يزداد بها نضج المعرفة نفسها . في المادة الاولى لسنا أمام حدس حسي بل أمام مادة أولى معقدة دائما من قبل والمعرفة

1) - Badiou. op. cit. p. 20.
2) - Anthropologie structurale. p. 308.
3) - Ibid. p. 317.

لا توجد بالتالي امام موضوع حتمى لابد ان يكون عندئــذ وحده هــو **والموضوع الواقعي** ، الذى تتوخى المعرفه منه تماما أنتاج المعرفه » (4).
فليست المادة الاولى ماده واقعيه خام بل هى ماده معرفيه تنتجها المعرفه نفسها ، هى ماده مكونة سلفا . انها **مفعول معرفه** تنشئها الضرورة الذاتية للبنيه المعقده للعلم ، تنشئها بما هى موضوع معرفه .

لا ينبغى ان يفهم من هذا الموقف ، ان فيه انتصارا لمفهوم صورى لبنية الممارسه النظريه . ذلك اننا عندما نلح على ان موضوع المعرفه متميز ومختلف فى ذاته تميزا واختلافا مطلقين من الموضوع الواقعــى وان المعرفه نتاج للفكر ، فاننا نعنى بهذا الاخير فكرا تكون فى التاريخ ، يلقى بجذوره العميقة ، داخل الواقع الطبيعى والاجتماعى ، كما يتحدد تحديدا سالفا بنظام من الشروط الواقعيه ، فهــو مفعــول معــرفه موضوعى ، ذو واقع موضوعى محدد . انه بعيد اذن عن ان يكــون ملكــه ذات متعاليــه متعارضــه مع العالم .

من الحيل التى يلجا اليها ستروس فى تسويغه لاستعمال النمــوذج داخل المعرفة النظريه ، انه يستشهد لتأييد صحة دعواه ببعض المعانى لكلمة نموذج ، لا تطابق سوى استعمالها التقنى ، أى عندمــا يكــون النموذج وسيلة تقنية فى التأليف بين معطيات مختلفة فى سبيل الحصول على غايه معينــه آنذاك، يكون استعمال النموذج استعمالا اختياريا صحيحا وفى محله ، من حيث أنه يتخذ لنفسه مكانا ، لا فى نظرية المعرفة بل فى التطبيق العملى ، أى فى نظام تقنية تروم انجاز بعض الغايات ، على أساس بعض المعارف التى يمدنا بها الاقتصــاد ، ووفقــا لبعض المعطيات الواقعية . ومن مظاهر الخلــط هذه بين الممــارسة التقنية والممارسة النظرية ، ن ستروس يستشهد بنص من كتاب « نيومــان و مور جنسترن » هو « نظرية اللعب والسلوك الاقتصادى » يقولان فيه : « ان النماذج بناءات نظرية يفترض فيها ان تكون تعريفا دقيقا ،

4 ــ التوسير ــ قراءة رأس المال . ص 59 .

جامعا ومانعا ، ليس به تعقيد كبير . كما يلزمها أيضا ان تكون مماثلة للواقعـــه فى مجيع علاقاتها المسترعية للنظر اثناء البحث . ولكى نختصر نقول : يلزم فى التعريف أن يكون دقيقا وجامعا حتى يسمح بـــامكـــان التعبير عنه رياضيا . ولا يجب المبالغة فى التعقيد مبالغة غير مجديه الى الحد الذى فلا يتعدى فيه الاستعمال الرياضى مرحلة الصياغة الصوريه فيعطى النتائج كلها بالارقام . لذا فالالحاح على ضروره تشابه النموذج مع الواقعة الغرض منه هو أن يكون استخدامه ذا دلالة » (1)

هذا النص ، فى اطار النظرية التقنية للنموذج ، لا غبار عليه . وان ستروس باستشهاده به يريد فى الحقيقه أن يتحده تغطية « علميـــه » لنظريته الاختبارية فى النموذج ، ان يستغل الالحاح الموجود فى النص على كون التماثل هو ما يقلص التباعد القائم بين الواقع والنماذج ، تقليص الهوة التى يفترض قيامها بين وقائع سلبية مشوشة ، وذات فاعلة تبنى النماذج . لهذا يمكننا القول : **ان النزعة الاختبارية هى الفلسفة التلقائية الثاوية خلف ابستملوجيـــا النماذج .**

كـــخلاصـــة لـــهذا البـــاب :

1 ــ كلمة نموذج فى استعمالها من طرف ستروس ، تمثل المقولة الاســـاسية لايديلوجية علمية ليست فى الاخير سوى **فـــونـــا** من النزعة الاختبارية المبتذلة ، تستعاد فيه ازدواجية «الحدث» و «القانون» استعادة تتخذ شكل ازدواجية «الواقعة» و «النموذج» . كما أن مسألة وحدة هذه الازدواجية تتخذ صورة استعادة للتماثل الوظيفى بينهما (2) ، أى أن النموذج يقلد الواقعة ويمثلها تمثيلا . من هذا المنظور ، اى كـــون العلم صناعة تقليدية ، يغدو العلم المطلق فى نظر ستـــروس هو ذلـــك العلم الذى باستطاعته ان يعطينا معرفة مقلدة للمسلسلات والعمليات التقليدية التى تتم بواسطة الدماغ ، أى يبنى نموذجا لآليات الدماغ ،

1) - J. Von Neumann and O. Morgenstern. Theory of Games and Economic Behavior. - Princeton. 1944. cit. par Strauss - op. cit. p. 306.
2) - A. Badiou. op. cit. p. 22

يكون بمثابة « دماغ صنمي » . وفي هذه النقطة بالذات ، يلتقي مشروع ستروس بمشروع آسبرنطقا (3) .

2 — الخلفية الايديلوجية لهذا اللون الاختباري هي محو وطمس الواقع الحقيقي لنظرية الممارسة العلمية من حيث هي عملية فكرية لانتاج المعارف والتصورات ، لايواجه فيها الفكر بوصفه ذاتا متعالية مادة تاريخية نوعية تلون الممارسة العلمية بلون خاص بها. نظرية النماذج مثلما تتجلى عند ستروس لا تحترم الفصلة القائمة بين الممارسة النظرية من حيث هي انتاج معارف ، والممارسة التقنية من حيث هي تهييء وسائل لبلوغ غايات ، اي تنظيم تقني لعملية مشخصة .

ثالثا — التصور العلمي للنموذج :

حاولنا اذن ان نبرز تجليات ومظاهر الاستعمال الايديلوجي الخالص لكلمة نموذج على الخصوص في فكر ستروس ، وقد استطعنا ان نبين ان النزعة الاختبارية هي الاشكالية الاساسية الثاوية خلف تفكيره ، واننا عندما نتحدث هنا عن النزعة الاختبارية ، لانقصد بها نزعة قائمة بذاتها ، بل حقلا متسع الاطراف لايتكون من التشابهات ، بل من الفوارق غير ان ما يوحد هذه الفوارق هو اشكالية الحقل الخاصة به . تتخذ هذه الفوارق صورة تنويعات وتغيرات ما هي في الاخير سوى تلونات مظهرية لهذه الاشكالية نفسها وامتدادات ضرورية لها . أن النزعة الاختبارية هي بالضرورة نزعة وضعية ونزعة اتفاقية ونزعة ذرائعية الالحاح من طرف المفكر على جانب من هذه الجوانب ومحاولته الانتصار له باعتباره هو ما يعكس اصالة وتفرد مذهبه ، لايهمنا هنا . ان ما يهمنا هو **وحدة الحقل الايديولوجي** المترتبة عن وحدة الاشكالية الاساسية ، اعني بها وحدة التفاسير والنزعات والمذاهب المنتمية لنفس الحقل الايديلوجي . وهي وحدة نظرية ، أو تعكس وحدة النظري . مضمون الذاهب بالنسبة لها اقل اهمية واقل استرعاء للنظر من صورتها

3) - A. Badlour. p. 21.

البنيوية . فاذا كان ما يؤلف الاشكالية المميزة لنظرية المعرفة الاختباريه هو فهم المعرفه على انها جزء واقعي من الموضوع الواقعي وتسجيل المعرفه فى البنية الواقعيه لموضوع الواقعي ، فان العلم سيصبح ضمن هذه الاشكاليه كشفا للواقع وصياغه نظريه له ، اى سيغدو نزعه اختباريه تعتقد ان المعرفه حسب لجزء واقعي من الموضوع الواقعي ذاته ووصفا لخصائصه ، وان عمليه الوصف هذه هي التي سوف تمكننا من امتلاك نظرة كليه عن الكيفيه التي يسير بحسبها هذا الواقع . انها عملية تقوم بها ذات تواجه موضوعا تروم باستمرار تكوين لمحة صوريه عنه تكون بمثابة خلاصه وصفيه له ، اى ان تصنع التصورات، تصورات موافقه للواقع تمام الموافقه ، لا تكون لها اى قيمه نظريه الا من حيث انها تشير الى موضوعات وتصورها . وان الذات لتختار من بين تصورات عديده ، تلك التي تنسبها وتلائمها . فاختيار الاحسن هو معيار الصدق والصحه . يكون التصور ابلغ فى الدلاله وافيد فى الافصاح عندما يكون اكثر شفافيه ، اى عندما يمكن من اظهار واجلاء الجانب الاكثر حقيقيه من الموضوع الواقعي ، النجوع عملا هو معيار الاختيار . فضمان الصورى هو جدواه العمليه ومردوده النفعي ، بهذا تصبح النزعه الاختباريه نزعه اتفاقيه ونزعه برجماتيه . هي ايضا نزعة صورية لانها تعتقد أن المعرفة تصوير اى صياغة صورية لواقع موجود وجودا سابقا على عملية الصياغه الصورية ونعني هنا بالنزعة الصورية في مدلولها الفلسفي من حيث هي نزعة تعتبر المعرفة علاقة بين جزئين متميزين : ذات وموضوع وتعتبر التصورات تنشأ من عملية تجريد ذاتية هذا اللون من النزعة الصورية هو ما نعثر عليه لدى « الوضعية المنطقية » ولدى « النزعة البنيوية » كما هى ماثلة فى فكر ستروس . والسمة الاساسية البارزة لدى دعاة هذين الاتجاهين هى البحث عن أساس المعرفة خارج المعرفة ذاتها ، أى خارج القول العلمى وخارج نمط انتاج تصوراته ، هى البحث عنها داخل الانغلاق الايديلوجى الذى يفرضه

سؤال ايديلوجي ينظر للمعرفة كنزاع بين ذات وموضوع بين الوعي والمادة ، بين الكلمات والاشياء . فما تقوم عليه هذه النزعه الصورية الاختبارية هو « تصفية التصور ذاته ، عندما تحيله الى مجرد وصف أو خلاصه تجربية »(1). ذلك انها تنظر الى المعرفة على انها تعرف مراوى، وتطرحها فى حدود لا تؤلف تصور بنيه المعرفة . وفى هذه النقطه بالذات تفلس الصورية الاختبارية ، اى عندما تشوه حقيقه الممارسة العلمية باحته عن عماد مادى واساس اختبارى يكون هو اصلها ومنبعهـــا ، وعن ذات واعية تكون بمثابه صانعه لتصوراتها . يقـــول كفييـــس : « ليست فلسفه الوعى ، بل فلسفه التصور هى الكفيله بان تكـــون مذهب العلم . والضروره التعميمية ليست ضروره نشاط ذاتى ، بل هى ضروره جدل » (2) والسؤال الحقيقى بالتالى فى المعرفة ، ليس هو كيف تصنع الذات التصورات ، بل كيف تنتج التصورات التصورات ؟ أو بتعبير افضل : ما الالية التى تنتج بها المعرفة ؟ فالاولية يجب ان تعطى للقول العلمى ذاته من حيث هو ممارسه نظرية نـــوعيـــة ذات استقلال وسير ذاتى بها . لا الكلمات ولا الاشياء بقادرة على ان تحدد لنا نظام الموضوعات النظرية الخاصة بتشكيلة قولية ما و « ينبغـــى الاعترف انه لا بالرجوع الى ذات متعالية ، ولا بالرجوع الى ذاتيـــة سيكولوجية يمكننا تحديد نظام المنظومات » (3). فالقواعد التى بحسبها تتكون التصورات لا نعثر عليها فى نظام الكلمات ولا فى نظام الاشياء ، لا فى الذات العارفة ولا فى الموضوع الواقعى المعروف . « فلكى نحلل تكوين التصورات ، لسنا ملزمين باحالتها الى افق المثالية ، ولا حتى الى المسيرة الاختبارية للافكار » (4)اننا ملزمون باحالتها الى القـــول العلمى ذاته اى الى الممارسة النظرية نفسهـــا التى لا تنتظر شـــروط صحتها من مواجهتها بالواقع ، بل تحمل فى احشائها شروط صـــدق

1) - M.F. Fichant. M. Péchoux - sur l'histoire des sciences. Maspéro. 1971 p. 26.
2) - J. Cavaillès - Sur la logique et la théorie de la sciences. 2e éd. 1962. p. 78-
3) - M. Foucault - L'archéologie du savoir. Gallimard. 1972. p. 74.
4) Ibid. 84..

وصحة معاييرها الذاتية . انها لا تكون بحاجة مطلقا الى الواقع كي يسندها وكى تكون هى رسما له .

لذا ضمن نظرية العلم وضمن المعرفة من حيث هى نمط انتاج تصورات يمكن لنا اعطاء كلمة نموذج مدلولها الصحيح . ان التصور العلمى للنموذج لا يمكننا العثور عليه الا داخل نظرية تؤلف تصور بنية المعرفة وتنظر الى الواقعى لا على أنه مصدر وأساس النظرى ، بل على انه حالة خاصة من كل نظرى أعم واشمل ، بذا يغدو الواقعى ممكنا نظريا ، أى انه يختلط داخل الممارسة النظرية نفسها بصور تسلسلها ، ويصبح بالتالى لحظة من لحظات النظرى وناتجا من نواتج بنية الممارسة النظرية . لاينبغى ان ننظر الى التصورات العلمية على انها ذات أصول واقعية بعيدة ، وان هذه التصورات تاتى الينا بصورة متصلة من الواقع ذاته ، بسلسلة غير متناهية من الوساطات ، أى أن نلقى بتبعية المعرفة على بداية أصلية ما تكون هى الموضوع الواقعى ذاته معتبرين المعرفة مجرد صدى صفى صيغ صياغة بلغت الحدود القصوى فى التجريد . بل ان الفهم الحقيقى لطبيعة الممارسة النظرية يلزمنا بدراسة آلية القول ، تلك الآلية التى بحسبها تنتج التصورات التصورات ، أى نظام ترتيب ظهورها واختفائها فى القول العلمى . وما سنحاول القيام به هنا بالذات هو ابراز التصور العلمى للنموذج اعتمادا على نظرية العلم خصوصا لدى بشلار وكفييس .

يلح بشلار فى الفكر العلمى الجديد (1) على أن العلم يدين النزعة الاختبارية ، وهى ادانة تتخذ صورة انقلاب علمى يصيب مشكلة الحدس برمتها الحدس الحسى داخل الممارسة العلمية يتعذر عليه ان يظل حدسا أوليا ، فهو مسبوق بدراسة منطقية تحقق ضربا من ثنائية أساسية فى أصل الوصف العلمى أو يؤدى ذلك الى اضطراب سمة الداهة والمباشرية التى ركزت عليها نظرية المعرفة الاختبارية خصوصا فى

1 الفكر العلمى الجديد — ترجمة الدكتور عادل العوا — دمشق 1969 . ص 140 وما بعد

القرن الثامن عشر . امام هذا الامر ، لا ينبغي الاستمرار في الحديث عن واقع بعيد وكثيف ولا معقول ، والا نسينا أن « الواقع » العلمي ذو علاقة جدلية مسبقة بالعقل العلمي . فلم يعد من الممكن الحديث عن تجارب صامتة ، كل التجارب عالمة باعتبار أن بين الفكر والعالم حوارا مستمرا خلال عدد من القرون ولا زال وهذا ما يجعل الملاحظة في المجال العلمي مسبوقة ببرهان ومعرفة موضوعية ، وما يجعل الملاحظة تحمل طابع المناظرة ، فوراء كل ملاحظة نعثر على أعداد نظرى لاغنى عنه . والتحولات العلمية ليست في الحقيقة سوى تحول الانوار الخلفية الملقاة على ظلمات المعرفة الناقصة . ومن جراء ذلك ، تتسم المعرفة العلمية بالجدة والتوسيع والتصحيح . وكل صفة من هذه الصفات تنم عن بديل وهذه الجدة عميقة لانها ليست جدة كشف ، بل جدة طريقة ومنهج . ولا يجب أن يفهم من ذلك ان جدة الفكر العلمي وتطوره يتخذان صورة تراصف معارف اختيارية ، مجرد تراصف . انها جدة وتطور يمكسان اتساقا وترابطا منطقيا في العلم . ولا ينبغي اعتبار التطور المتسق على انه نمو آلى ينطلق من المذاهب القديمة شطر المذاهب الجديدة ، بل هو نمو احتوائي ، الافكار الجديدة تحتوى الافكار القديمة وفق اسلوب قوامه ضم التجارب الفكرية المتعاقبة بعضها الى بعض حيث يصبح القديم حالة خاصة من الجديد دون أن تستطيع هذه الحالة الخاصة البتة ان تستدعى الحالة العامة . فالنمو في الفكر العلمي استدراك وتصحيح لا تكون نقطة انطلاقه هي الواقع، بل تصحيح عتاده النظرى قصد بلوغ الواقع . فالتفكير العلمي لايقتصر على التفكير في التجربة الحاضرة ولا يريد الاكتفاء بوصف سمات الواقع البارزة ، بل يفكر في جميع الامكانات الواقعية . لذا فان الممكن في العلم يغدو هو وسيلتنا في الاقتراب من الواقع ، انه ينظم هذا الاخير تنظيما نظريا يسهل علينا معرفته بطرق اكثر استقامة .

وانطلاقا من هذه الفكرة ذاتها يذهب بشلار في « النشاط العقلاني

للفيزياء المعاصرة (1) التأكيد بأن الواقعية العلمية واقعية لا مباشرة ، سيما وأن التفكير العلمى بنزع صفة العلمية عن الحدوس الحسية الاولى ويعتبرها عديمة الجدوى فى المعرفة العلمية .« فى فهم الواقع العلمى لا يمكن الاكتفاء بالصور الاولى . وان واقعية الحدوس الاولى يجب وضعها بين قوسين » فظاهرة الذرات المتراقصة فى شعاع شمس نافذ من ثقب ما ، لا تفيد من الناحية العلمية شيئا . ومحاولة اعطائها مدلولها العلمى الصحيح تقتضى الشروع فى النظر اليها على ضوء الدراسة العلمية لظاهرة الانتشار . وهى دراسة ستجعلنا على بينة من شىء ، الا وهو أن ظاهرة انتشار النور **تناقض** الصورة المعهودة التى الفناها من رؤية الاشعة تتخذ شكل **خط مستقيم** .

هكذا لا تحصل الصور الواقعية على قيمتها العلمية الحقة الا عندما يعاد بناء وتنظيم التجربة نظريا اى عندما نبحث لها عن اساس غير اساسها الواقعى ، اى عن اساس نظرى صلب هو ما يسمح بامكان فهمها . لذا فنظرية العلم ترفض المسلمة الساذجة القائلة بأن أولية الحدس هى أساس المعرفة و « غالبا ما نجد الفيلسوف الذى يتوخى اخذ جميع الدروس من العلم المعاصر ، يكون ملزما بالذهاب الى نقيض هذه المسلمة الابستملوجية ، اى ملزما بمناهضة القول بالسبق الزمنى التجربة » (1) .

ان عملية المعرفة لا تنطلق من الخبرة ، وليست تمثل قاعدتها ، بل هى فى بحث دائب ومتصل عن قاعدة جديدة . وهذا ما يشكل المبدا المحرك للفكر العلمى ، انه الجدل ، جدل النظرية والتجربة ، وهو جدل، خلاله يخلق العلم موجودات علمية وينزع حق الوجود عن بعضها الاخر اى يخلق صوراً ، لكنه لا يلبث أن ينزع عنها صفة الصلاحية العلمية . فنقائص النظرية السابقة ومحاولة التغلب عليها وعلى صعوباتها ، هى

---

(1) G. Bachelard. L'activité rationaliste de la physique contemporaine. 2e éd. P.U.F. 1965, p. 65.
(2) Ibid. p. 2.

التى تؤدى الى اكتشاف موجودات علمية جديدة وهو اكتشاف قد يتخذ صورة رسم حدسى ، او نموذج حسى ، الا ان ذلك لن يجعل منه وبالضرورة حلا حدسيا للمسالة أو حلا اختباريا ، لان النموذج هنا لن يجد تبريره وتسويغه الحقيقى الا داخل نظرية ، اى داخل بنية تفسير نظرى هى التى انتجته . أنه سيكون تسويغا نظريا رياضيا أنتجته الممارسة النظرية السابقة واعتباراتها العلمية ، ولم تمله اعتبارات اتفاقية تتعلق بالباحث نفسه . ويسوق بشلار على ذلك مثال نموذج « بوهر » للذرة مبتدئا حديثه بالتاكيد على ان الصور الخيالية فى العلم تكون ملائمة مناسبة ، لكن ما يلبث أن يظهر عليها نقص فى التفسير وعجز يؤدى الى التخلى عنها او التضيق من قوتها والحد منها : « وآن تاريخ النظريات الفيزيائية هو ايضا وفى الغالب ، تاريخ الانقاص من قيمة النظريات الاولى المتخيلة » (1)

فعندما اكتشف العلماء الذرة ، استطاعوا بفضل القوانين الكهرطيسية المكسويلية ، وفى اطار العلم الكلاسيكى ، ان يصنعوا لها نموذجا تفسيريا . وقد سار كل ذلك على احسن ما يرام ، اذ وجد نموذج الذرة هذا تسويغه النظرى الكامل فى بنية تفسير موروثة من مكسويل ومن العلم الكلاسيكى فى القرن التاسع عشر فى هذا النموذج شبهت الذرة بالكون ، لذا سمى بالنموذج الكونى للذرة . وقد وضعه « رذروفورد » العالم الانجليزى (1871 ــ 1937) حيث شبه فيه الذرة مجموعة شمسية تحتل النواة مركزها وتسبح الالكترونات حول النواة مثلما تسبح الكواكب حول الشمس . هذا النموذج ، لا يمكن اعتباره ناتجا عن ملاحظة اولى مباشرة ، او عن حدس ، بل عن مبادىء نظرية أوحتها الميكانيكا الكلاسيكية ، فهو نموذج يتعلق بنظرية ويستدعيها ، انه مفعولها . فالصورة الخيالية ، التى يصورها النموذج الكونى للذرة حاصل تعريف رياضى وحاصل بنية رياضية نظرية . فهو رمز « حدسى » الى تعريف والى نظرية وليس رمزا الى

1) Ibid. p. 68.

واقعة أوحت ببنائه وتركيبه . انها ليست رسما لواقعة ، بل انشاء نظريا لواقعة يوسع حقل انتجربة توسيعا نظريا من أجل بلوغ ممكناتها. وليس صدق النموذج الكونى للذرة مرهونا بالواقعية التى توجد عليها الذرة نفسها ، بل بالقوانين النظرية السابقة التى حددته ، أن صحة النموذج الذرى الاول الذى وضعه « رذرفورد » مرتبطة بصحة القوانين المعروفة للمجال الكهرطيس ومشروطة بها . فهى التي قادت «رذرفورد» الى النموذج واخذت بيده اليه ، وليس العكس . ليست معاينة الذرة ومشاهدتها هى التي لوحت لردز فورد بتركيب نموذجه .

لماذا لم يثبت النموذج ولم يصمد ؟ وما الدافع الذى سيؤدى بالعلم الى التخلى عن نموذج «رذرفورد» ويتبنى نموذج بوهر سنة 1913 ؟ قد يعتقد فى اطار النظرية الاختبارية ، ان ذلك قد نتج عن عجز النموذج الاول عن ان يدل دلالة وصف على جميع الوقائع الملاحظة المتعلقة بالذرة، وان يدخلها فى حسابه ، أو بعبارة افضل ، قد يعتقد أن اسباب نقص النموذج الاول ناتجة عن عجزه عن ان يعطى نظرة جامعة ومانعة على الذرة من حيث محتواها ، مضمون مادى ، خارج عنه . لكن الامر خلاف ذلك . فعوامل الضعف التى طرأت على النموذج الاول ، عوامل علمية ذاتية خاصة به ، أى داخلية متعلقة بالنموذج نفسه من حيث هو بنية تفسير نظرية ، هى عوامل تتعلق بتماسكه الذاتى هو حيث هو بناء نظري وليست تتعلق بعدم اتفاقه بما هو بناء نظرى تراكيبى ، مع محتوى مادى اقعى ودلالى . ولكي نشرح هذه المسألة بوضوح نقول : كان النموذج يحمل فى احشائه عوامل ضعفه وعلامات تفككه وبشائر نخره . وقد اتخذ كل ذلك صورة صعوبات كانت من الكثرة . بحيث جعلت العلماء أمام مشكلة ، غير أن اول من أولاها عناية كبرى هو العالم الدنمركي «ينلز بوهر» (1885 ــ ؟): اذ بناء على قوانين الطاقة، حفاظها ومصونيتها ، لوحظ أن النموذج الكونى للذرة يعتبر الالكترون يتحرك حركة دائرية مستمرة حول النواة ، وأنه بالتالى سيفقد بالتدريج من طاقته المترتبة عن اشعاعه المتواصل . ونتيجة لذلك ، ان الالكترون

لابد وأن ينتهى به المطاف الى الزوال والاندثار . امـــام هذه المعضلة احتار العلماء وسقط فى ايديهم ، ذلك ان عوامل الضعف الذاتى للنموذج الكونى لاتمس النموذج وحده ، بل تمس ، بالاساس ، الخلفية النظرية التى سمحت بظهوره ، اى انها تمس مبـــادىء الميكـــانيكا الكلاسيكية نفسها والقوانين الكهرطيسبة . اذ بنـــاء على هذه المبـــادىء سيموت الالكترون ويندثر بفقدانه طاقته . فكان على العلماء امـــا أن يحافظوا على الميكانيكا الكلاسيكية والقوانين الكهرطيسية ، وبالتالى ان يقبلوا بنموذج عيانى للذرة يشبهها بالمجموعة الشمسية ، الا ان الكهارب لن تدور ، او حتى ان دارت فانها ستكون عرضة للزوال والموت يترتبـــان عـــن فقدانها طاقتها . وان هذه الصعوبة القصوى هى التى أدت ببوهر الى أن يطرح نموذجا كونيا جديدا على شكل فرضية عقلية تســـاعد علـــى الخروج من المأزق . فى هذه الصورة الجديدة التى اقترحها بوهـــر ، سيصبح الالكترون يدور حول النواة ، الا انه فى دورانه لا يصدر شعاعا. وصدور النور أو امتصاصه فى الذرة يحدث عندما يقفز الالكترون مـــن مداره الاصلى المشروع له الى مدار آخر ، آنذاك تكون الطاقة التـــى أصدرتها الذرة او امتصتها مســـاوية للفرق فى الطـــاقة بيـــن مستويى الحركتين. واللاحظ ان هذا النموذج يحل الازمة ، الا انه يحدث تحويلا علميـــا عميقـــا ، خصوصا وانه لايلائم القوانين الميكانيكية الكلاسيكية، كما لا يتفق والكهرطيسية المكسويلية . علاوة على هذا . هو نمـــوذج انتجته ضرورات معرفية نظرية ، ولم ينتج لوصف استخدام واقعة من الوقائع . فنموذج بوهر ليس رسما صنـــع ليشير الى واقعه خارجية عنه، بل ابدعته حركة العلم قصد هدم ركام التناقضات التى اصبحت تعـــوق الطريق امام تقدم العلـــم . فهو نمـــوذج عقلى « يطـــرح نفســـه فى الابستملوجية ، كنهاية للتشبث بالصور التشبيهية . وهى نهاية يلـــزم اعتبارها من املاء وسائل رياضية فى الفهم العقلى للقوانين ، وليســـت **نتاجا** يؤكد تأكيدا وثوقيا **وجودا واقعيا** » (1) أى انه يطرح نفسه كعملية

1) - Ibid. p. 69.

نزع الصبغة الواقعية عن ذاته واضفاء الصبغة الاحتمالية النظرية عليها . فاذا كان النموذج لا يشير الى واقعة موضوعية بعينها ، فانه فى الحقيقة يشير الى بنية نظرية والى علاقة رياضية احتمالية ، انه لا يدلنا على هذه الذرة بعينها او تلك ، بل على **ذرة ما أيا كانت** حسب تعابير «فرديناند كونسيط» . «من البديهى جدا أن اى تجربة لا تجرى على ذرة وحيدة بعينها ، بل على ذرة ما أيا كانت من مجموع ذرات، وأن **التصور الموجه** فى ذلك هو الذرة بالكثرة » (1) وكل محاولة دقيقة لاستخلاص القيم الفلسفية التى يفيدنا بها التفكير العلمى ، الا وتجعلنا امام ضرورة الاقلاع عن الاعتقاد بأن الوحدة فيه هى ما يشكل أساس الوجود ، ليس الوجود واحدا ، بل كثرة وتعدد . والذرة كثرة . هى كثرة قبل أن تكون مفردة بل قبل أن تكون ذرة حتى . فوجودها مستمد من كثرتها الاحتمالية . وبنيتها تتحدد تبعا لعلاقات احتمالية . يقول بشلار : « هكذا ، لم يعد الامر مدار مستوى **واحد** ، اى مدارا **واحدا** يكون بمثابة مسار وحيد أو بمثابة مسار وحيد او بمثابة حركة كونية . بل أن الهندسة هنا تتنازل عن حقها لحساب الاحتمالات « (2) .

ونفس العوامل التى تحكمت فى ظهور نموذج بوهر هى التى ستتحكم فى اختفائه . ذلك انه رغم الازمة الخانقة التى استطاع بوهر أن يخرج العلماء منها بفضل نموذجه — الفرضية ، ورغم تجديده فى قوانين الفيزياء الحديثة ، فان ظواهر كثيرة اخرى بقيت غامضة دون أن يتجلى أمرها تمام الانجلاء . وقد ترتبت عن ذلك صعوبات نظرية كثيرة . فمثلا : بقيت الكيفية التى يغير بها الالكترون طفرته غير دقيقة من الناحية الحسابية . كما أن تحوله من مدار الى مدار بقى مبهما من الناحية الرياضية . لذا تصور العالمان « غود سميت » و « اوهلنبيك » امكان تجاوز عدم الدقة الرياضية تلك بالقول بأن الالكترون لا يدور حول

1) - Ibid. p. 70.
2) - Ibid. p. 73.

النواة فقط ، بل حتى حول نفسه . وهذا ما اسميه « بالانتقــال » . ومعناه تلك اللحظة الحركية التى يلف فيها الالكترون حول نفسه . وقد وجد هذا الافتراض تسويغه الرياضى كما استطاع أن يغطى نقــائض نموذج بوهر . غير ان بيت القصيد لا يكمن فى هذه النقطة ، بل فى كون نظرية الانتقال ستؤدى الى انقلاب النموذج رأسا على عقب خصوصا وانها لعبت دورا تاريخيا فى العلم . اذ انطلاقا منها استطاع العالــم اليابانى « يوكاوا » أن يستنتج رياضيا وجود «موجود» علمى جديــد يكون الكترونا موجبا هو «البوزيتون» او الكهرج . كما أنه انطلاقا من هذا النموذج البوهرى المرمم الجديد ، أستطاع العلماء عن طريق تحليل رياضى القول بضرورة وجود لحظة مغناطيسية فى الالكترون ، ثم تبين لهم فيما بعد ، أنها خاصية لابد من اعتبارها مجتمعة والانتقال وسموها « مغنـــــط ».

هكذا تعقد النموذج وفقا بساطته الاولى . والمبدأ الذى ادى الى تعقده وتحوله هو ان الوقوف عنده كان فى كل لحظة تاريخية من لحظات تطور العلم يمثل عقبة ابستملوجية ، فهو كنموذج لايظهر قيمته واهميته العلمية الا باندثاره وانمحائه . النموذج لحظة نظرية نظرية من لحظات الممارسة النظرية التى هى حركة أنتاج المعارف اى انه وليد نظرية يأتى ليملأ ثغراتها ، ووليد افتراض الغــاية منه ترميــم النظرية الســالفة واصلاحها . فهو لايجد محله الحقيقى الا داخل الممارسة العلمية للبرهان وليس داخل ممارسة علمية اتفاقية . فطابعه الحقيقى هو الانتقــالية والتجاوز . أنه لا يستنفذ معناه العلمى الحقيقى الا فى اللحظة التــى يضمحل فيها من تلقاء نفسه ، اى تلك اللحظة التى يظهر فيهــا وقــد استنفذ كل قواه التفسيرية . آنذاك يتفكك وينقد تماسك بنائه النظــرى والمنطقى . ان نموذج بوهر الكونى ظهر فى الفيزياء الحديثــة ليبــرز اهمية المدار الالكترونى فى الذرة . لكنه لم يوف هذا الغرض حقه الا فى اللحظة الى أعطى فيها تفسيرا احتماليا للمدار نفسه أى فى اللحظة التى قضى فيها على الوجود العينى الواقعى والتقنى للمدار ، ومعنى ذلك ان

النموذج البوهوري لم يبلغ كماله العلمي الا في اللحظة التي انسحب فيها من الميدان معلنا التخلي عن الغرض الذي ظهر من اجله . الا وهو اعطاء صوره للمدارات الالكترونيه . بعباره مختصره . لقد تحول نموذج بوهر من نموذج رسم هندسي الى نموذج احصائي ، اي الى ما ليس هو . ومن هذا يمكننا القول . « ان من « يحسن التخلي عن النموذج يتخلى عن العلم ، اذ ان كل تثبيت بالنموذج يمدو عقبه ابستملوجيه »(1) . فهو لا يجد مكانه الحقيقي والمنطقي الا داخل سلسل التصورات ، اي لداخل منظومه التصورات . ومن هذا الجانب ، يلزم اعتباره مفعول ممارسة علمية نظريه ، وليس تمثلا لواقع عقل خارجي عنه ، اي نتاج ممارسة برهنة .

لكن ما يجب التنبيه اليه ، هو اننا عندما نربط النموذج بعمليه انتاج التصورات ، لا نجعل منه بناء منطقيا في مقابل مدلولات ومعاني واقعية ، او بتعبير أفضل ، لا ننظر لعمليه انتاج التصورات على انها علم بناء وتركيب في مقابل علم دلالات و معاني مثلما يريد دعاه الوضعية المنطقية ، بل ننظر اليها على انها ممارسة فحسب ، لا تخضع في سيرها لغير معاييرها الخاصة بها . كما ننظر اليها من منظار يوحد بنيتها ، اي يوحد المبني والمعني . وفي هذا الصدد لا نجد خيرا من الملاحظات التي ضمنها « «كفييس » كتابه الشهير : « حول المنطق ونظرية العلم » حين يؤكد أن « العلم هو قبل كل شيء نظرية مبرهنة »(2). ومعنى ذلك ان الممارسة العلمية تحقق لذاتها معايير صدقها الخاصة بها ، وليست تحتاج في ذلك الى مواجهة واقع غفل غريب عنه . اذا كان الامر كذلك ، فانه من الخطأ الكبير النظر الي العلم « كما لو كان مجرد وسيط بين الفكر البشري والوجود في ذاته ، مستقل عن هذا بقدر ما هو مستقل عن ذاك ، لا يملك اي وجود واقعي خاص به . بل / من اللازم / النظر اليه كموضوع **نسيج وحده** ، أصيل في ماهيته ، ومستقل في حركته ، استقلالا

1) - A. Badiou - op. cit. p. 17.
2) - J. Cavaillès. op. cit. p. 19.

ذاتيا » (3). بهذا المعنى يمكن التكلم عن وحـــدة العلـــم ، اى وحدة الممارسة العلمية حيث لا نعثر ألبته على لحظة اختبارية ثم لحظة تركيبية نظرية ، أننا امام ممارسة علمية واحدة ، اى أمام منظومة تصورات واحدة ، وكل نظرية فى العلم الا وتكون ملزمة بأن تطرح نفسها فى حدود تضمن هذه الوحدة وتحترمها ، اى حدود تؤلف بنية الممارسة النظرية خارجا عن كل تقسيم ايديلوجى لها ، وخارجا عن كل توزيـــع مسرحى لاشخاصها واعطائهم أدوارا ايديلوجية يرأد منها ضمان هذه الوحـــدة وتامينها تامينا اختباريا مثلما هو الشأن فى نظرية المعرفة التى تطـــرح مسألة الممارسة النظرية فى حدود مناوبة الاختبـــارى والصورى ، فى حدود صراع الذات والموضوع . ان وحدة الممارسة العلمية هى وحدة فى حركة ، حركة العلم المتحقق بدافع من عدم اكتمال وياملاء من متطلب التقدم « ألا أنه تقدم مستقل بنفسه ، وديناميه منغلقة على نفسهـــا ، ليس لها ابتداء مطلق ولا أنتهاء ، لان العلم يتحرك خارج الزمان — ان كان يقصد بهذا الاخير زمانا معاشا من طرف وعى مـــا . »(1) . ومعنى ذلك ان ليست الذات هى التى تصنع التصورات ، بل هذه الاخـــيرة تولد تلقائيا ، وتخلق نفسها بنفسها خلقا عفويـــا ، ليست التصوارت تخلق حسب ما يتفق للعالم وحسب ما يختاره هو ، اى أنهـــا ليست مفعول مواضعة ذاتية ، بل هى مفعول برهنة . والمعنـــى الحقيقـــى لنظرية ما لا يكمن فى جانب واحد يعتبره العالم ذاته كما لو كان فـــى الاساس هو الجانب الجوهرى ، بل هو صيرورة تصورات لا نهـــاية لها . « بل حتى بالنسبة للعلوم الطبيعة نفسها ، تزايد تصوراتهـــا ، لا يتم بـــاملاء شروط خـــارجية ، اذ بين الاحســـاس والعلم ، تـــوجد قطيعة . »(2) . ويترتب عن ذلك ان التجربة العلمية ليست انخراطا فى سلك الطبيعة ، بل الحاقـــا لهذه الاخيرة بالشروط النظريـــة التـــى تسمح بقيـــام معرفة بالطبيعة .

---

1) - Ibid. p. 22.
2) - Ibid. p. 23.

فى البرهنة تنبجس التصورات ، وانبجاسها يتخذ صورة انبثاق وانكشاف لايكون متمايزا عن المنبثق والمنكشف ذاته . لذا « فالرمز ليس موضوع العالم ، غير انه ان كان لا يحيلنا الى شىء آخر يكون مدلوله ، فانه يحيل الى الافعال التى تستعمله . (...) الرمز لصيق بالفعل ولا يشكل بدايته أو نهايته » (1) . وعليه ، فالعالم لا ينشأ من تعريف موضوع خارجى ولا من مصادفة هذا الموضوع ومواجهته ، بل ينشأ من انتاج تصورات انتاجا يخلق معه قواعد ومعايير صحته . فصيرورة علم ما من العلوم هى تكوين تصورات ونظريات هذا العلم وتوالدها .

ان الرياضيات صيرورة موضوعية « تنتج لذاتها ارضيتها الخاصة بها ، ولا توجد اية ارضية اخرى ما عدا تلك التى تنتجها الرياضيات وتعيد انتاجها بدون انقطاع » (2)

كخلاصة لهذا الباب نقول :

1 — كل نظرية فى العلم يجب ان تكون نظرية وحدة العلم ، أى وحدة الممارسة العلمية . والمقصود بذلك وحدة بنية المعرفة العلمية من حيث هى عملية انتاج التصورات ، تجرى بكاملها داخل الفكر آنئذ ، تكون المعرفة عندما تعمل فى «موضوعها» ، لاتعمل فى موضوع واقعى ، بل فى موضوع معرفة ، فى موضوع مكون سفا ومحدد سلفا من طرف الشروط النظرية . والاتجاه الى دراستها لا يكون محض اختيار اتفاقى ، بل يخضع هو ذاته لشروط المعرفة نفسها .

2 — فى نظرة كهذه لطبيعة الممارسة ، تغدو الملاحظة العلمية نفسها لبعض «الوقائع» لا ملاحظة حيادية وصفية ، بل ملاحظة موجهة محددة تحديدا سالفا ، ومعقدة تعقيدا سالفا ، أى أنها لاتكون ملاحظة، الا بتلقى شروط امكانها كملاحظة ، وهى شروط امكان نظرية . فملاحظة الوقائع ليست تكون سابقة زمنيا على عملية المعرفة بما هى

1) - Ibid. p. 40.
2) - J.T. Desauti - Les idéalités mathématiques. Paris. Seuil. 1968. p. 283.

عملية انتاج تصورات ، بل محايثة لها وجزء منها ، فهناك علاقة تزامنية بين الملاحظة والمعرفة ، من حيث أن الملاحظة تغدو عنصرا داخل مجموع ينطبع بطابع هذا المجموع اى طابع المعرفة . فى الملاحظة العلمية تتحول الموضوعات ، من موضوعات واقع الى موضوعات معرفة . لسنا نقصد بالتحويل هنا تجريدا عقليا ، نتخلص منه مما يشوب نضارة الواقع الملاحظ ، بل تحويل موضوعات الواقع الى منتجات فكرية، لا تخضع لاية معايير اخرى سوى معايير الممارسة النظرية الى انتجتها . والنموذج ، فى هذا المعنى ، لن يكون سوى حاصل برهنة نظرية ، اى مفعول معرفة ، فهو لحظة نظرية من لحظات الممارسة العلمية ، لا يجد مكانه الحقيقى الا داخل منظومة القضايا التصورات التى انتجته وأولدته .

3 ـ ابستملوجية ستروس ، لون من الابستملوجيا اللاعقلانية وتنويع لها . يمتزج منها العلم بالايديلوجية امتزاجا يتخذ صورة تأليف بين مفاهيم اختبارية افرزتها « مسألة المعرفة » فى طرحها الايديلوجى وبين تصورات علمية اثنلوجية . فى هذا التأليف والمزج هيمنت الايديلوجية واستغل العلم . هيمنة الايديلوجية الاختبارية لدى ستروس اتخذت صورة استعادة التضاد القائم فى «مسألة المعرفة» الاختبارية بين الذات والموضوع تحت شكل تضاد اعم بين الطبيعة والثقافة . فلحظة الملاحظة يختبر فيها الملاحظ عينيا الحضارات ، فعمله اذن عمل ميدانى ، يمثل تجربة احتكاك أولى بالحضارات دون الاستناد الى اى تصور مسبق ، فهى اذن لحظة من نظام الطبيعة . أما لحظة التفسير، فهى تمثل المرحلة التى يشرع فيها الباحث فى عمله التعقلى الثقافى القائم على تفسير قول الطبيعة . او القول الاثنوغرافى . فهى اذن لحظة تنخرط فى سلك الثقافة ، فيها يعطى الباحث تصورا لمعنى موضوعه الملاحظ ، لمعنى الحضارة المعنية بالدرس . فكما ان الطبيعة طبيعة غفل ، كذلك الباحث يكون فى لحظة الملاحظة ذهنا خاوى الوفاض ، او عقلا بلا بنية ، انه عين ترى دون أن تحاكم . ولا يهيأ له ان يعطى

تفسيرات نظرية الا فى المرحلة الاثنولوجية وذلك بترقيع نماذج ، نفس هذا التضاد الذى يقيمه ستروس على مستوى منهجيه البحث العلمى بين الطبيعة والثقافة ،يقيمه ايضا على مستوى فلسفته الانتربلوجيه . ففى « البنيات الاوليه للقرابه » (1) نجده يردد موضوعه التضاد بين الطبيعه والثقافه ذاهبا الى ان الحياة الانسانيه ظهرت بظهور المعايير والقواعد القوانين ، ذلك ان بهده الاخيره يتجاوز الانسان ما هو طبيعى فيه ، يتجاوز قوانين الطبيعه ليحولها الى نظامه . فالقاعده والقانون هما اللذان يكونان الثقافه ، لانهما يحلان التنظيم محل المصادفه ، ويحلان الوضوح محل العتمه والخلط . وقد ساد هذا التضاد تفكير ستروس حيث يعبر هو بنفسه عن ذلك فى كتابه « الفكر المتوحش » بالقول : « يبدو لنا اليوم ان التضاد بين الطبيعه والثقافه الذى ركزنا عليه فيما مضي ، قد اعطى على الخصوص ثماره المنهجيه »(2) . هذا التركيز على تقابل الطبيعه والثقافه يذكرنا بقرابات بين ليفى — ستروس وجان جاك روسو ، والامر فى الحقيقه لا يقف عند مجرد قرابات ، بل يتعداه ليصبح تطابقا كاملا ، اذ جاز القول ، بين فكرى المفكرين . هذا ما نلاحظه فى كتاب « الطوطميه اليوم » الذى يذهب فيه ستروس الى ان روسو بمقابلته بين الطبيعه والثقافه فى كتابه « مقال فى أصل التفاوت بين الناس » سبق الاثنلوجية بسنوات كثيرة . لذا فكتابه المذكور يمكن ان يعتبر بدون منازع أول كتاب فى الانتربولوجية العامة فى الفكر الفرنسي (3) . وما يهمنا هنا ليس القرابات بين روسو وستروس اذ ان ذلك يتطلب بحثا كاملا ، بل هو : مثلما ان المرحلة الطبيعية سابقة على الانسانية ، أى على مرحلة المجتمع ، ومثلما أن القاعدة والقانون هما اللتان تكونان المجتمع والثقافة وتحلان النظام محل المصادفة والخلط ، كذلك فان الملاحظة سابقة على العلم باعتبار أن

1) - C.L. Strauss. Structures élémentaires de la parenté. P.U.F. 1949 - Voir chap. I et II.
2) - C.L. Strauss. La pensée sauvage. Paris. Plon 1962. p. 327.
3) - C.L. Strauss. Le totémisme aujourd'hui. 4e éd. P.U.F. 1974 - p. 146.

العالم يختبر الحضارات دون الاستناد الى اى مفهوم سابق او تصور مسبق . وأن العلم لا يبدأ الا مع اللحظة الاثنلوجيه عندما تنشأ لانماذج لتفسير قانون وقاعدة سير الظواهر . فالنموذج هو ما يكون العلم وما يمثل قاعدته . هل هذا صحيح ؟ !

4 — ان المبدأ المحرك للعلم ولنمو الممارسة العلمية لا يكمن خارج هذه الممارسة نفسها ، فى مرحلة سابقه عليها زمنيا ومنطقيا مثلا ، بل يكمن فى قلبها ، اى فى تاريخها الفعلى من حيث هو عملية انتاج تصورات وعملية تحويل لموضوعات الواقع الى موضوعات معرفة . انه تاريخ تزامنى ينشته تالف عناصر البنية وتحولاتها الداتيه الداخليه ، والذى تمثل فيه الملاحظة عنصرا من عناصر هذه البنية . حقا ، ان ستروس لا يهمل هذه القضية ، الا أنه يحصرها فى المرحله الاثنلوجية وحدها ، وبذا فانه يرتكب عيبين منهجيين : اولا : انه يطرد الملاحظه من الممارسه العلميه ويعتبرها مرحلة سابقة على العلم ، اى مرحلة ما قبل الممارسة النظرية باعتبار ان الملاحظة لا تحول شيئا ، ناسيا ان الملاحظة العلمية تقاد من خلف وتتحدد تحديدا نظريا سابقا ، كما أنها تحتاج سلفا الى جملة شروط نظرية تسمح بامكانها كملاحظة ، وانها بالتالى لحظة نظرية من التاريخ الفعلى للممارسة النظرية . ثانيا : بنظرته الى الممارسة العلمية على أنها تمثيل وتصوير اتفاقى، سقط من حيث لا يدرى فى النزعة الانطباعية . وقد صرح هو نفسه بذلك علنا عندما قال : « فى المرحلة الاولية يصعب تجنب نوع من الانطباعية حيث سنجد لمشكل واحد بعينه حلولا عديدة ممكنة » (1) وهذه الانطباعية اللاادرية نتيجة حتمية تلزم عن المسار الايديلوجى للنزعة الاختبارية المهيمنة على فكر ستروس . ولو فكرنا مليا لوجدنا أنها لا أدرية لا تخالف لا أدرية فتجنشتين الذى يصرح بأن « معنى العالم هو **عالمى الخاص** ، يتجلى عن الحقيقة القائلة بأن

1) - C.L. La pensée sauvage. p. 89.

حدود اللغة (اللغة التى افهمها) تعني حدود عالمى » (2) ، اى لا تخالف النزعة الاناوحدوية التى تقوم على الاعتقاد بأننى انا وحدى موجود ، وعلى ذلك فكل ما اعرفه او ادركه هو ما يوجد ايضا بالاضافة الى وجودى ، اى ما يقع فى حدود خبرتى الشخصية . وهذا ما عبر عنه رسل عندما قال : « على كل نظرية معرفة ان تنطلق من السؤال الآتى : « ماذا **أعرف** ؟ » وليس من السؤال : « ماذا **تعرف الانسانية** ؟ »(...) والنقطة الهامة هى أن **معرفتى** بالوقائع العيانية تقوم على خبراتى الحسية (1) .

خلاصة عامة :

« ان المنهج الذى يتيح الارتفاع من المجرد الى المشخص ليس شيئا آخر غير نمط يستولى به الفكر على المشخص ، ويعيد انتاجه فى صورة مشخص فكرى » (2) .

« يعتقد العلماء أنهم بجهلهم للفلسفة أو باستنكارهم لها ، سيتحررون منها . لكنهم ، لما كانوا يعجزون عن الاستمرار خطوة واحدة بدون تفكير ، ولما كانوا ، كى يفكروا ، فى حاجة الى مقولات منطقية ، ولما كانوا ، من ناحية اخرى ، يأخذون هذه المقولات ، دون أن ينتقدوها ، (...) فانهم فى هذه الحال لا يكونون بأقل وقوعا تحت نير الفلسفة ، وفى معظم الاوقات مع الاسف، تحت نير أسوا فلسفة. والذين هم اكثر استنكارا للفلسفة هم بالضبط عبيد لاسوا البقايا المنحطة والمبتذلة لاسوا المذاهب الفلسفية . ومهما يفعل العلماء ، فانهم واقعون تحت سيطرة الفلسفة (3) .

سالم يفوت — الدار البيضاء — اكتوبر 1975

1) - B. Russel - Signification et vérité. Trad. franc. Paris. Flammarion. Ph. Devaux. 1969. p. 161.

2) K. Marx. contribution à la critique de l'économie politique. Trad. G. Badia , Ed. Sociales 1969 P. 165

3) F. Engels - Dialectique de la nature. Ed. Sociales. Paris 1961. p. 211.

انتقادية النزعة التاريخية عند التوسير

عبد السلام بنعبد العالى

فى مؤلف كتب له أن يصبح ذائع الصيت حاول (ك ، بوبـر) انتقاد المذهب التاريخى (x)، غير أن هذا الانتقاد ، رغم شهرته، لايبدو أصاب أهدافه . والحقيقة أن (بوبر) لايبدو مقنعا فى كثير من آرائه ، كما أنه يبدو مفرقا فى الصورية فى بعض الاحيان . والأدهى من ذلك انه ، هو الوضعى المحدث ، يسقط فى عدم الدقة والتحديد .

يتضح لنا هذا عندما نسائل انفسنا ، ونحن نطالع الكتاب ، ماذا يقصد المؤلف بالمذهب التاريخى ؟ صحيح انه يعطينا تعريفا لتلك النزعة ، فهى فى نظره ((طريقة فى معالجة العلوم الاجتماعية تفتـرض أن التنبـؤ التاريخى هو غايتها الرئيسية كما تفترض امكان الوصول الى هذه الغاية بالكشف عـن ((القوانين)) او ((الاتجاهـات)) أو ((الانمـاط)) أو ((الايقاعات)) التى تسير التطور التاريخى وفقا لها)) (1) ، الا ان هذا

(x) historicisme : مذهب تاريخى ، نزعة تاريخية . تـاريخانية (بتعبيـر الاستـاذ العروى) .

1 — كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى الترجمة العربية 1959 ص 11 .

التعريف يكاد يشمل كل الفلسفات التاريخية التى ، هى كذلك ، تحاول الكشف عن ايقاع يسير التاريخ حسبه ، وتسعى ، من وراء ذلك ، الى التنبؤ بفترات التاريخ واتجاهاته . ثم ان (بوبر) يتكلم فى بعض الصفحات عن المذهب التاريخى وفى صفحات أخرى عن طريقة ومنهج اجتماعى . هذا بالاضافة الى انه ينسب لتلك النزعة موقفا لا تقول بها هى وحدها ، أى انه يحاول أن يحددها بخصائص ليست هى التى تشكل نوعيتها وتميزها كنزعة . ففى الفصل الاول يبدو المذهب التاريخى كل مذهب لايقبل تطبيق المنهج التجريبى بخصائصه المعروفة (من تعميم وموضوعية وتكميم وتجزيء وعزل ..) على الظاهرة المجتمعية . كما انه يبدو فى الفصل الثانى عكس ذلك . ذلك أن (بوبر) يحاول أن يعطينا خصائص المذهب التاريخى بعرض مواقفه من تطبيق المناهج الطبيعية فى علم الاجتماع . وفى هذا العرض تصبح الخاصية المميزة لهذا المذهب هى قوله باتصاف القوانين الاجتماعية بالنسبية التاريخية .

يعنى هذا ان النزعة التاريخية هى « نسبية تاريخية تعتبر الحقائق والقوانين والعادات والاخلاق ، وبصفة عامة كل الافكار والقيم نتاجا لفترة تاريخية معينة ولحضارة بعينها » (2) . ان السؤال الاساسى الذى علينا ان نطرحه لمعرفة القيمة الحقيقية لانتقادات (بوبر) ، ثم لتحديد النزعة التاريخية والتمهيد لانتقادات (التوسير) هو ما اذا كانت النزعة التاريخية هى مجرد القول بالنسبية التاريخية ؟

يدعونا (ج. غابيل) الى التفريق بين نوعين من النزعات التاريخية « فقد يكون من المفيد التمييز بين تاريخية تنبؤية تفرض ان التاريخ له معنى واتجاه وتاريخية تراجعية تقتصر على القول بان الواقائع المجتمعية لها وجود ((تاريخى)) وأن تاريخيتها تسمح لنا بمعرفة ماهى تلك

2 — A. Stern : ايديلوجيات . انتربوس . باريس 1974 - ص 198 .

Revue philosophique Juit - Sept. 1862

3 — J. Gabel بعض الملاحظات حول النزعة التايخية - مقال بمجلة

الوقائع)) (3). معنى ذلك أن هناك نزعة تاريخية (قوية)تدخل الوقائع البشرية فى هذا الكل الزمنى الذى يحرك ويفسر واخرى (فقيرة) لاتعتبر التاريخ محركا بل تقتصر على القول بنسبية الظواهر البشرية .

يبدو أن (بوبر) يتردد بين هاتين النزعتين : فهو فى تعريفه السابق الصريح يتبنى المفهوم الاول للتاريخية وعند استعراضه لموقف المذهب التاريخى من دعاوى المذهب الطبيعى يميل الى الموقف الثانى أى الى رد النزعة التاريخية الى النسبية .

غير أن النزعة التاريخية ليست هى مجرد القول بالنسبية التاريخية ذلك ما نجده واضحا فى كتاب (الايديلوجيات والطوباوية). يقــول (مانهايم) : النسبية Relativisme موقف نابع عن المنهج التاريخى ــ الاجتماعى الذى ينطلق من الاعتراف بأن كل فكــر تــاريخى مرتبــط بالوضعية الاجتماعية التى يحياها المفكر . ولكن النسبية تخلط بين هاته الرؤية التاريخية ــ الاجتماعية وبين نظرية فى المعرفة اقدم منها : تلك النظرية التى كانت تتجاهل التفاعل الموجود بين الشروط الاجتمــاعية وانماط التفكير ، والتى كانت تنسج مفهوما عن المعرفة حسب نماذج قارة ثابتة (...) وهكذا فالنسبية ناتجة عن عدم الالتقــاء بين هــاته الرؤية الجديدة للتطور الواقعى للفكر وبين نظرية فى المعرفة لم تكــن لتقبل هاته الرؤية)) (4) . القول بالنسبية اذن لايتنــافى مــع رؤيــة لاتاريخية ، رؤية تفرض نماذج ثابتة وحقائق تتجاوز التاريخ ، بل هــو يقتضيهـــا ويقــوم عليهــا .

يقابل الموقف النسبى ما يسميه (مانهايم) الموقف الارتباطى او العلائقى Relationnisme وهو موقف ((يستحيل فيه تصور حقيقة مطلقة مستقلة عن القيم والاوضاع لا تشدها اية رابطة الى السيــاق

4 ــ كارل مــانهايم : الايديولوجية والطوبــاوية . الترجمــة الفرنسية ب. رولــى . مكتبة ريفيير 1956 .

المجتمعي » بهذا المعنى « يمكن تعريف النزعة التاريخية عن طريق هاته العبارة : الحقائق والقيم بنات للزمن والتاريخ » (5) فهي بالتالي « ليست مجرد جمع آلي لنتائج منعزلة تتعلق بالعلم التاريخي ، ... بل هي تسعى لان تكون فلسفة حقة ، قادرة على الا تكون مجرد منطلقات لابستمولوجية ما بل اساسالها ، انها تبوأت المكانة التي كانت الميتافيزيقا تحتلها قديما ... وان طريقتها الاساسية تقتضي تجاوز الوقائع التاريخية المنعزلة والبحث عن الوحدة العميقة للصيرورة التاريخية باستخدام مفهوم الكلية » (6) .

هذا البحث عن الوحدة العمية لزمان اساسي وهذا الاستخدام لمقولة الكلية هما ما سيحاول (التوسير) انتقاده وذلك عند شيخ النزعات التاريخية : هيجل . فكيف يعرض (التوسير) انتقاده ذاك ؟

يدعونا (التوسير) في البداية الى مراجعة مفهوم التاريخ وتحديد النظرية التي نعتمدها في تحليلاتنا التاريخية . فـ « مفهوم التاريخ ، مفهوم يطرح هو ذاته مشكلا نظريا ، ذلك لان هذا المفهوم ، كما يقبل عادة مفهوم يعوزه النقد . وهو كمفهوم (واضح) قد لا يحتوي على اي محتوى نظري اللهم المحتوى الذي يعطيه اياه الايديلوجية الموجودة او السائدة » (8) . وان ممارسة المؤرخين تفترض مفهوما معينا عن التاريخ ، مفهوما غالبا ما يظل ضمنيا ، علينا اذن ان نتلخص من هذا المفهوم الايديلوجي عن التاريخ وأن نشكل مفهوما علميا ، اي مفهوما يسمح بانتاج معرفة عن الموضوعات التاريخية العينية المشخصة . ذلك المفهوم السائد ، لكونه مفهوما ايديلوجيا فهو لا يسمح بمعرفة بل على العكس من ذلك يعمل على حجب الواقع الحقيقي للامور والاقتصار على البداهة والوقوف عندما هو مباشر . لقد كانت اعمال كثير من المؤرخين

---

5 — A. Stern : المقال المذكور اعلاه

K. Mannheirn cité in Fabel (J). op cité p 199.

8 — قراءة الراسمال . الجزء الاول . سلسلة ما سبيرو والصغيرة ص 115 .

ضحية مفهوم ايديلوجى عن التاريخ . وهى لم تكلف نفسها ، فى البداية، عناء تكوين موضوعها النوعى وتشكيل مفهوم ذلك الموضوع . لذا كانت ضحية النزعات المثالية او الاختبارية .

وقد اكتفت النزعات المثالية التاريخية بتعميمات تنتج فى الواقع لا عن نظرية (علمية) فى التاريخ ، بل عن (فلسفة ايديلوجية) للتاريخ. اما النزعات الاختبارية فقد خلطت بين التحليل التاريخى وبين سرد يثبت الوقائع والازمنة والامكنة .

و يعتقد (ألتوسير) أن المفهوم الهيجلى عن التاريخ يعطينا أوضح مثال عن الزمان التاريخى الايديلوجى فنحن يمكننا « أن نتبين خاصيتين أساسيتين للزمان التاريخى الهيجلى : وهما الاستمرار المتناسق وتعاصر الزمن :

أ ـ أما الاستمرر المتناسق للزمان فهو انعكاس فى الوجود لاستمرار التطور الجدلى للفكر . وهكذا يعتبر الزمن عند هيجل كما لو كان ذلك الذى يتجلى فيه الاستمرار الجدلى لتطور الفكر . وهكذا يؤول مشكل علم التاريخ الى تقطيع هذا الاستمرار الى حقب توافق تبعية كل جدلى لكل آخر . وتوجد لحظات الفكر فى عدد من الحقب التاريخية التى يجب تقطيعها تقطيعا مضبوطا فى الاستمرار الزمنى » (9).

وهكذا فخاصية الاستمرار المتناسق المنسجم تجعل التاريخ عند هيجل وعاء ووسطا تتم فيه الحوادث . كما تجعل التاريخ زمانا اساسيا ترسم فيه الظواهر الاقتصادية والايديلوجية والسياسية .

ب ـ اما الخاصية الثانية فهى تعاصر الزمن أو مقولة الحاضر التاريخى . هاته المقولة هى ما يؤسس امكانية قيام الاولى وهى التى ستوضح لنا تفكير هيجل فى عمقه . اذا كان الزمان التارخى هو وجود

9 ـ نفس المرجع ص 116 .

الكل المجتمعي . فيجب أن نبين ما هى بنية هــذا الوجود . فكــون العلاقة التى تربط الكل المجتمعى مع وجوده التاريخى علاقة بــوجــود مباشــر ، يقتضى كون تلك العلاقة نفسها علاقة مباشرة ، وبعبارة اخرى ان بنية الكل متواقتة دوما فى نفس الحاضر ، وتكون بالتالى معاصــرة بعضها لبعض . وهذا يعنى ان بنية الوجود التاريخى للكل المجتمعى الهيجلى تسمح بما اقترح ان اطلق عليه (اقتطاعا ماهويا) واعنى تلك العملية الفكرية التى يمكننا عن طريقها أن نقوم بقطيعة عمودية فى اية لحظة من الزمان التاريخى ، قطيعة يمكن لعناصر الكل جميعها ان تعبر فيها مباشرة عن ما هيتها الداخلية » (10) .

المعروف أن (ألتوسير) يميز بين مفهوم المجتمع عنــد (هيجــل) وبينه عند (ماركس) : فبينما يعتبر ماركس المجتمع بنية مترابطة تتكون من مستويات اهمها المستوى الاقتصادى والسياسى والايديلوجى ، يتحدث هيجل عن كل لا يتحدد بمستوى من مستوياته ، بل « بمبدأ لا مكان لــه ولا مرتبة امتياز فى المجتمع ، وذلك لكونه يشغل جميع الامكنة ويحتل جميع المراتب » (11) فكان ذلك الاقتطاع الذى يتحدث عنــه ألتوســير يعطينا عناصر الكل جميعها لان هذا الكل ذاته يشكل وحدة لا تنحل الى مستــويــات .

ان مفهوم التاريخ عند هيجل مفهوم مثالى لانه يوحد بين تصور التاريخ (اى بين الموضوع النظرى «تاريخ») وبين الموضوع الواقعــى العينى (الحوادث التاريخية العينية) ويجعل من تلك الحوادث انعكاسا لذلك المفهوم والتصور . فاللحظة التاريخية التى يتحدث عنها هيجل هى لحظة حضور التصور امام ذاته . يقول (ألتوسير) :« اننــا عنــدمــا نتحدث عن لحظة تطور الفكر عند هيجل فيجب أن ننتبه الى أن هــذا اللفظ يحيلنا الى وحدة بين معنيين : يحيلنا الى اللحظة كلحظة تطــور

10 — نفس المرجع ص 117 .
11 — دفاعا عن ماركس ص 209

(وهذا يقتضى استمرار الزمـــان ويثير المشكل النظرى للتقطيع حسب حقب) ، كما يحيلنا الى اللحظة كلحظة زمن ، كحاضر ليس قط الا ظاهرة حضور التصور أمام ذاته عند جميع تعييناته الواقعية » (12) .

ان مفهوم الزمان التاريخى عند هيجل ، لا يعطينا صورة عـــن التصور المثالى للتاريخ فحسب ، بل انه يزودنا بنموذج عن التصورات الاختبارية عن الزمان ـــ « مفهوم مبين عن الزمن مأخوذ ـــن أكثـــر النزعـــات الاختبـــارية شيوعـــا . انـــه مـــأخـــوذ عن الاختبـــاريـــة التى تعتمد على الوضوح الخادع كما تعطينا اياه « الممارسة » اليومية . تلك الاختبارية التى نجدها ، فى شكلها البسيط الســـاذج عند معظـــم « المؤرخين »» أو على الأقل عند المؤرخين الذين لم يحاولوا يطرحـــون أسئلة بصدد البنية النوعية للزمان التاريخى » (13) يتبين لنا اذن ما دعا (ألتوسير) الى تسمية هذا المفهوم عن التاريخ بالمفهوم الايديلوجى. فهيجل لم يعمل الا على « أن وضع داخل اشكالية الخـــاصة المشكـــل الاساسى لممارسة المؤرخين ، ذلك المشكل الذى كان يعبر عنه (فولتير) عندما ميز مثلا قرن لوى الخامس عشر قرن لوى الرابع عشر . وهو أيضا المشكل الاساسى الذى يضعه التاريخ الحديث » (14)

وهكذا يشكل المفهوم الهيجلى عن التاريخ النموذج الذى احتذته النزعات المثالية مثلما تبنته النزعات الاختبارية . فهذا المفهوم يجسد لنا العيوب التى تفترضها النزعات المثالية والاختبارية معا ، والتى ما زال المؤرخون يقعون فى فخها . يقول (ألتوسير) :« اذا كنت الح بهذا الشكل على طبيعة الزمن التاريخى الهيجلى وعلى شروطـــه النظريـــة فذلك لان هذا المفهوم عن التاريخ وعن علاقته مع الزمن ، ما زال حيا

12 ـــ قراءة الرأسمال الجزء الاول . ص 117
13 ـــ نفس المرجع ص 119
14 ـــ نفس المرجع ص 116 .

بيننا ، كما يمكن ان نتبينه فى التمييز الشائع اليوم بين التزامن والتطور (بين السانكرونى والدياكرونى) . ان هذا التمييز يعتمد على مفهوم عن الزمان التاريخى المستمر المتناسق المعاصر لذاته . فما هو تزامنى هو التعاصر ذاته وحضور الماهية فى ذات الوقت مع تعييناتها حيث يمكن قراءة الحاضر كبنية داخل اقتطاع ما هوى . لان الحاضر يعنى وجـد البنية الاساسية . فالسانكرونى يفترض اذن هذا المفهوم الايديلوجـى عن زمن متناسق ـــ مستمر . ولا يكون الديـاكرونى الاصيرورة هـــذا الحاضر ودخوله فى استمرار زمانى حيث لا تكون الحـــوادث التى يرجع اليها التاريخ بالمعنى الدقيق الا حضورا غير ضرورى يلى حضورا آخر (راجع ليفى ـــ ستروس) فالدياكرونى ، مثل السانكرونى ، (. . .) يفترض الخاصيتين اللتين تبيناهما بصدد المفهوم الهيجلى عن الزمن))(15)

هذا ما تفعله النزعات التاريخية كلها فى نظر (ألتوسير) . انها لا تعمل الا على (تحريك) الخلود ليصبح تاريخيا انها تحـــرك الســـاكن ليصبح تطورا وتحرك السانكرونى ليصبح (دياكرونى) .

النزعة التاريخية لا تفصل بين نظرية التاريخ وبين التاريخ الحقيقى. وهى تفترض ان الوقائع التاريخية تحمل فى ذاتها معانيها وانها تقدم لنا نفسها فى الكيفية التى تتم بها بالفعل : فهى اذن لاتتميز كثـــيرا عـــن النزعات الاختبارية . انها خاضعة هى الاخرى لمفهوم ايديلوجى عن الزمن مفهوم يتستر وراء ((البداهات)) . ثم ان النزعة التاريخية تفترض زمانا اساسيا وتاريخا للبشرية يعلو على التاريخ العادى وترسم عليه التواريخ الجزئية للشعوب والامـــم .

ينطلق (ألتوسير) من رفض هذا الزمان الاساسى العام وهـــذا الوعاء الذى يشمـــل الحوادث وذاك الوسط الذى تتم فيـــه الوقائع ((يجب أن نقول انه مثلما انه ليس هناك انتاج عام فليس هناك تاريخ

---

15 ـــ نفس المرجع ص ص 118 ـــ 119 .

عام بل مجرد بنيات نوعية للتاريخية ، بنيات قائمة على البنيات النوعية لمختلف انماط الانتاج ، بنيات نوعية للتاريخية » (16) « فلم يعد في أمكاننا أن نضع في نفس الزمان التاريخي حركة تطور مختلف مستويات الكل : ان نوع الوجود التاريخي لمختلف « المستويات » هاته ليس هو ذاته . فيجب أن نعين بالنسبة لكل مستوى زمانا خاصا يتمتع بنوع من الاستقلال النسبي ويتصف بنوع من الاستقلال في ترابط مع الازمنة الاخرى ، ازمنة المستويات الاخرى . علينا أن نقول ، وفي استطاعتنا أن نقول : لكل نمط انتاج زمن وتاريخ خاصان منفصلان بنوع خاص عن نمو قوى الانتاج ، زمن وتاريخ خاصان بعلاقات الانتاج منفصلان بصفة نوعية وتاريخ خاص بالبنية العليا السياسية وتاريخ خاص بالفلسفة (...) . وكل من هاته التواريخ مقطع الى حقب حسب ايقاعات خاصة ولا يمكن أن تعرف الا بعد تعيين مفهوم نوعية زمانيتها التاريخية وتقطعاتها » (17) . فذلك التواقت بين مختلف هاته الازمنة الذى يفترضه المفهوم الهيجلى لا وجود له وان « التواجد الذى نلاحظه داخل) « الاقتطاع الماهوى » لايعطينا أية ماهية حاضرة في كل وقت ، ماهية يمكن أن تكون حاضر كل مستوى ان القطيعة التى « تليق » بمستوى معين ، سواء اكان المستوى السياسى او الاقتصادى ، وان القطيعة التى يمكن أن تكون الاقتطاع الماهوى بالنسبة للمستوى السياسى مثلا ، لا يمكن قط أن تكون كذلك بالنسبة للمستويات الاخرى كالاقتصادى أو الايديلوجى أو الجمالى أو الفلسفى أو العلمى ، تلك المستويات التى تعيش في أزمة أخرى ، ولها قطيعات أخرى وايقاعات أخرى وفواصل أخرى . وان حضور مستوى من المستويات لهو بمعنى ما غياب للمستوى الاخر » (18)

ولكن لا يكفى تعيين زمان كل مستوى على حدة ، بل يجب ربط

---

16 — نفس المرجع .
17 — نفس المرجع .
18 — نفس المرجع ص 130

تلك الازمنة فيما بينها ، يجب تعيين الزمان الذى يميز ترابط انماط الانتاج داخل تشكيلة اجتماعية معينة . فكون « كل هاته الازمنة وكل هـــاته التواريخ يتمتع باستقلال نسبــى لا يجعل منه ميدانا مستقلا عن الكل. منوعية كل هاته الازمنة وهاته التواريخ ، وبعبارة أخرى ، ان استقلالها النسبى مبنى على نوع من التوقف وعدم الاستقلال بالنسبة للكل (...) وهذا يعنى أن نوعية هاته الازمنة والتواريخ نوعية متفارقة قائمة على العلاقات المتفارقة الموجودة داخل الكل وهى العلاقات الكائنة بين مختلف المستويات : ان نمط ودرجة استقلال كل زمان وكل تاريـــخ يتحـــددان ضرورة بنمط ودرجة ترابط كل مستوى بمجموع ارتباطات الكل » (19).

ولكن هذا لا يعنى الرجوع الى ذلك الزمان الاساسى الذى يعتمده هيجل . يقول التوسر : « اذا ما أقصينا النموذج الايديلوجى لزمان مستمر قابل لان يقطع اقتطاعات ماهوية تشكل الحاضر ، فيجب ان نحرس من ان نضع بدل هذا التمثل ، تمثلا آخر له مظهر مخالف ، ولكنه يبقى على نفس الايديلوجية الزمنية . فلا يمكن اذن ارجاع مختلف الازمنة الى زمان ايديلوجى اساسى ولا يمكن قياس تفاوت تلك الازمنة بنفس الخط المستمر وارجاع ذلك التفاوت الى مجرد تاخر فى الزمان او تقدم فيه ، اى فى نفس ذلك الزمان الايديلوجى . اذا ما حاولنا ، فى مفهومنا الجديد عن الزمن ان نقوم باقتطاع ماهوى ، فاننا سرعان ما نتبين أن ذلك الاقتطاع مستحيل . اننا اذا ما قمنا بذلك الاقتطاع فاننا سنسقط فى العيب الذى غالبا ما يقع فيه أمهر مؤرخينا ، عيب الايديلوجية التاريخيه ، حيث لا يكون التقدم والتأخر الا تنوعات للاستمرار الاساسى لا نتـــائـج البنية الكليـــــة » (20)

ان زمان التشكيلة الاجتماعية ليس زمانا أساسيا بالمعنى الهيجلى بل هو ترابط بين الازمنة المختلفة فنحن مضطرون دوما ، عند الحديث

---

19 ـــ نفس المرجع ص 124
20 نفس المرجع ص 131

عن زمان مستوى من المستويات ، أن نعين زمان على مستوى عـــلى ارتباطه بالكل . « علينا أن ننفصل عن جميع الاشكال الايديولوجية هذه كي نرجع الظواهر التي يلاحظهـــا المؤرخون أنفسهم الى مفهومها ، الى مفهوم تاريخ نمط الانتاج الذي ينصب عليه الاهتمام لا الى زمـــان ايديلوجي متناسق منسجم مستمر متصل » (21)

وهنا يتعين علينا أن نشكل المفهوم العلمي للتاريخ ، أن نقف عند موقف اختباري يعتبر الوقائع التاريخية معبرة عن ذاتها معطاة بنفسها . فمثلما كان من الضروري تكوين الموضوع العلمي « للمنظومة الكواكب » لمعرفة الحركة الحقيقية للكواكب والنجوم ، تلك الحركة التي تختلف عن الحركة الظاهرية ، ينبغي تكوين مفهوم نظري عن التاريخ لمعرفة الزمنيات الواقعية للتطور الاقتصادي والسياسي والايديولوجي ، تلك الزمنيات التي لا تعطينا نفسها الا في شكل البداهة الايديولوجية فليس هناك « زمان يمكن أن يقرأ مباشرة في جريان هذا التطور أو ذاك ، انه زمان لامرئي ، خفي، لا يقرأ انه يشبه في تخفيه وعدم شفافيته واقـــع التطور الكلي للانتـــاج الرأسمالي . ان هذا الزمان لايمكن ادراكه كـــ « ملتقى » مركب لمختلف الايقاعات (...) ألا في مفهومه ، وهو ككل مفهوم لا « يعطى » مباشرة ، ولا يقرأ في الواقع الظاهر : ان هذا المفهوم ، ككل المفـــاهيم ، يجـــب انتاجه وتشيده » (22) .

ليس علينا أن نكتب (كلاما) يعطينا الوقائع كما تتم بالفعـــل ، بل (كلاما) يسمح لنا بمعرفة الكيفية التي تتم عليها الوقائع بالفعل ، والاسباب الاقتصادية والسياسية والايديلوجية التي تجعلنا نعتقد أن تلك الاحداث تتم بكيفية تختلف عن الكيفية التي حدثت بها بالفعل . بهـــذا المعنى يكون تاريخ وقائع مستوى من المستويات تنظيما لتلك الوقائـــع

---

21 — نفس المرجع ص 131

22 — نفس المرجع ص 126

فى مجال نوعى يعطى اسبقية لاحداث ويؤخر اخرى ، تنظيما معقولا لا يكون صـــورة عن النظام المشخص للاحداث وتعاقبها بل تنظيما يريد تفسير تلك الاحداث وفهمها .

عبد السلام بنعبد العالى

كريستين غلوكمان *

حول علاقة الأدب بالأيديولوجيات

ترجمة : عبد الادريسي

ان كل تفكير فى العلاقة التى تربط الادب بالايديولوجيات يدخل ، فى البدايه ، ضمن تقليد نظرى وسياسى ماركسى ، حيث يعتبر الادب « شكلا اديولوجيا » وتكون الايديولوجيا هى البناء العلوى للانساق الفكريه وللوعى الاجتماعى ، ذلك البناء الذى يعبر عن علاقات اجتماعيه محدده ، وهنا يكون تطور الادب شيئا تابعا لوجود سابق هو وجود الايديولوجيات ، و لا يمكن للادب الا أن يحتل مكانا مزدوجا : فمن حيث هو مطابق للاديولوجية فهو يعيد انتاجها ويعطيها شكلا : وينتج عن هذا فهم ضيق موجه وسياسى للادب ، ومن حيث هو يختلف عن الايديولوجية ، فهو ، جاوز بالمعنى الهيجلى (اى يتجاوز ويحافظ على) ، المواقف الطبقية للكاتب : ويتجلى كانعكاس عارف للواقع . الا ان الزوج المتباين ايديولوجية / معرفة ، شأنه شأن الحد الثالث ، اى الواقع ، لابد وأن يحدث تناقضا فى وضع الادب : ذلك أن الكتابات الماضية ، كتراث ينبغى

* — شاركت ك . غلوكمان بهذا العرض فى اطار ندوة (كلونى 2) التى انعقدت حول موضوع الادب والايديولوجيات خلال أيام 2 و 3 و 4 من ابريل 1970 .

انتقاد قيمته ، تكون صادقة بالرغم من حدودها الايديولوجية (الفيودالية او الرأسمالية) ، اما أعمال المجتمع الاشتراكى فهى تكون كذلك بفعل ايديولوجياتها وبحكم صدق مضامين مـــا تذهب اليه . الشيء الذى يمكن أن يقودنا الى نظرية عن الآداب (البروليتارية) أو الى مفهوم معيارى للواقعية الاشتراكية .

ومن هاته الناحية ، فان علم الجمال الذى اقامه (لوكاش) ابتدير بحث الشبه . فهو اذ يعارض كل نزعة ضاحية لسوسيولوجيــا الاداب مبتذلة ، لا يعمل على ان يعيد الاعتبار لنسبية المعايير الايديولوجية . واذا كان (لوكاش) يرفض فى مختلف كتاباته حول الواقعية ، التحليل التكويني او النفساني ــ الاجتماعي للعمل الادبي كعمل متوقف علــى الاصل الطبقي لصاحبه (بليخانوف) ، واذا كان علم الجمال عنده يقــوم على موقف يعارض كل نزعة سيكو ــ سوسيولوجية ، فذلك ليجعل من الادب انعكاسا عارفا للواقع بمقدار ما يسمح به العمل الادبي الواقعى ايجاد من الادراك للواقع فى كليته . وما قام به (لوكاش) هنا هو استمرار وتكملة لمـــا قاله انجلز عن بالزاك ، الكاتب الواقعى بالرغم منه ، وهو كذلك تبن للكل الهيجلى المعبر وقد اتخذ بعدا اجتماعيا ، ثم هو اخيرا ، سعى وراء ربط علم الجمال بسوسيولوجية المعرفة المادية النزعة . ولكن انتصار النزعة الواقعية البورجوازية يقوم على تناقض بين مبـــدأ أميول (السياسة) فى الفن ، والنتيجة الفعلية للعمل الادبى ، ذلـــك العمل الذى تظل آثاره خفية ، فى جزء منها ، عن مستوى المشــــروع الواعى . و فى هذا اللاتطابق بين الفكر والكاتب الا يعمل الادب ككتابة لا واعية بذاتها ، كتابة تستمد صحتها ، خارجيا و أخلاقيا ، من صـــدق الكاتب ؟ او كـــ « اخلاق ادبية » للاعمال الكبرى ؟ وبغض النظر عـــن الاهمية التاريخية لـــلوكـــاش التى لاتعنينا الان ، يظهر أن الوضع الذى يعطيه للادب يرسم **نقطة غامضة** : نقطة يكون فيها الادب ممارسة تتعلق بالدال ، وعملية تشيد فيها الايديولوجيات وتنتقد وتنمو ، ذلك لانه اذا

كان كل عمل من اعمال النزعة الواقعية يقوم على تمييز ممكن بين الفكر والفن كمعرفة توحد الواقع وتعتبره كلا ، فينبغي فرض علاقة بين « ما هو ادبي » و بين المحتوى ، اذ ذاك نقلت من مفهوم رومانسي ابداعي للادب (نظرية المواهب والعبقريات) الا بفعل تلقائية خلاقة لاشكال جديدة ، ولكن اذا اعتبرنا الشكل كانسجام بين اجزاء المحتوى ، فذلك يعني التمسك بتصور هيجلي بل و ارسطي للعمل الادبي كـ « شكل يعبر عن كل تاريخي » او كـ « Mimésis » . وبهذا المعنى فهناك نوع من الانشقاق في علم الجمال الماركسي . ذلك لانه اذا كان (لوكاش) قد خصص جزءا كبيرا من الاستيتيكا التي كتبها سنة 1963 لتحليل الـ Mimésis فيمكننا ان نواجه بالمحاولة النظرية لبريخت الذي كان يسعى الى اقامة علم جمال ماركسي لا ارسطي ، سواء في مستوى الممارسة المسيحية التي تقوم على تلك المقولات ، والتي تنزع في الواقع كل قيمة فلسفية عن إتكلام الهيجلي (1) . واخيرا ، فان اللقاء أدب / أيديولوجيات عند (لوكاش) ، يتم باسم مفهوم « محتوائي Contenuiste » للادب ، و في اطار نماذج معيارية واقعية موحده ، تحقق هي وحدها التقدمية والاشتراكية . ومن ثمة نلاقي من جديد ، ولكن في صيغة غير موجهة ، المبادىء الايديولوجية التي كنا نحاول استبعادها : فن منحط / فن تقدمي ، الايمان الوثوقي بالاشكال الموحدة ، اعطاء الاسبقية لتحليل الموضوعات الايديولوجية واهمال الممارسة الادبية في بعدها التجريبي المجدد .

في كثير من الحالات ، سواء اكانت العلاقة التي تربط الادب بالايديولوجيات مباشرة أو غير مباشرة ، يظهر ان الاسبقية التي تعطى للايديولوجية تتم على حساب التطور الادبي . فكم يبدو مغريا ومطمئنا من الناحية السياسية ، قلب وضع من النوع الذى تصوره (لوكاش) بمجرد اهمال ايديلوجية الاعمال الادبية و وضعها بين قوسين و اغفال الايديولوجيات في الاعمال الادبية ، لصالح البحث عن الصفة « الادبية »

وحدها : « عما يجعل من عمل ما عملا ادبيا » كما كان يقول الصوريون الـــروس (2).

و الحال انه يبدو لنا ان على الابحاث الماركسيه ان تتجاوز ، فى البدايه ، المأزق المزدوج الذى تقع فيه النزعه التاريخيه ونوع معين من النزعات الصورية ، اذا اخذنا الصوريه على انها دراسه تقنيه للاشكال ، دراسة تهمل السياسه . اذ كان المفهوم الماركسي للتاريخ يقتضي فى ذات الوقت ، انشاء للزمانية النوعية « للمستويات » والحاحـــا على الدور الذى يلعبه ، فى نهاية التحديد ، المستوى الاقتصادى الاجتماعي ، فذلك لان « الاقتصاد وحده لا يخلق أى شيء مباشرة ، بل انه يحدد الكيفيـــه التى تتغير حسبها المادة الفكرية وتنمو . هذا بالاضافة الى ان الاقتصاد يقوم بذلك بطريقة غير مباشرة ، لكون الانعكاسات السياسية والقانونية والاخلاقية هى التى تحدث أكبر الاثر المباشر على الفلسفة »(3). هذا ما يقوله انجلز عن الفلسفة وهو تحليل يمكننا أن نتبنـــاه بصدد الاداب كـذلـــك .

ان مجال ما نطلق عليه ، دون تروكبير ، « بنية عليا »، أن ذلك المجال ذاته قابل لان ينحل الى مناطق ذات فعالية نوعية تتخذ شكلا متميزا بفعل القطاعات الاخرى داخل ممارسة معينة . لقد بين (التوسير) الاثر الذى تقوم به الايديولوجيات العملية والعملية والعلوم على الفلسفة ولكن بقى علينا أن نعمم ذلك على الادب . وحينئذ سيقوم بين الدراسة التاريخانية والدراسة البنيوية للادب ، مجال نوعى كان (تينيانوف) قد حدد معالمه فى كتاباته (مسجلا بذلك منعطفا فى تاريخ النزعة الصورية الروسية) : « ارتباطا الادب بالحياة المجتمعية ، على الصعيد الشفوى وعلى صعيد ما يعمل فى حقبة معينة كنوع من الانـــواع الادبية » (4). وربـــا وجب ان نقـــول اليوم كنص ، اذا اخذنا بعين الاعتبار تطـــور الابحاث العلمية ، واذا ما تبنينا أبحاث علماء المعانى الروس وخصوصا (لوتمـــان) و (بياتغوسكى) .

يفتح هذا المفهوم بابالوضع نمودج ترتيب للثقافات ، حيث التصنيف عن طريق رصد علامات تسمح بتمييز ما يعمل كـ « نص » وما ليس كذلك . (مثلا التمييز بين المكتوب / الشفوى) ، وان ذلك الترتيب لن يسمح باقامة نظرية للانساق و « الممارسات الدالة » فحسب، بل يمكن كذلك من التنبيه الى أن وظيفة النص تتحدد بالدور الاجتماعى الذى يقوم به .

والوظيفة هنا « هى العلاقة بين النسق وتحقيقه ومن وجه النص ومن وجه اليه » (5) . وفى هاته التحليلات لا يتم تحديد معالم الادب عن طريق المعايير اللغوية وحدها ولا حتى عن طريق المفهوم التقنى الذى يعتبر أن العمل الادبى يستمد ادبيته من تنظيمه الذاتى . ان ما تضعه تلك التحليلات موضع فحص ، لهو معالم ما يمكن ، فى مجتمع ما ، أن يفرض نفسه كـ « أدب » : اى كنص حدد نفسه كنص أدبى لا كنص دينى (رسالة مقدسة) أو كـ ((لا ــ نص)) (رسالة دارجة . انه نص ينسب لجمهور معين ولممثل بعينه . اذا ما علمنا بان « الادب » لم يوجد منذ الازل ، فعلينا ان نسلم بأنه يحتوى على معايير مجتمعية وايديولوجية ــ أعنى معايير متدرجة اكتسبت تدرجها وتسلسلها من العلاقات المجتمعية . وها هى ذى بعض امثلة على ذلك : تدرج الانواع الادبية فى الادب الاتباعى الكلاسيكى حيث تكون « علامة كون العمل عملا أدبيا متناسبة مع ارتقائنا فى سلم الفنون » ، امثلة أخرى : تمييزنا ، فى مجتمعنا الحالى ، بين الرواية والشعر ، العمل الثورى الذى قام به (بريخت) فى محاولته **لاعادة بناء** جذرى للانواع الادبية وتسلسلها ــ واخيرا كون ماركس ولينين قد أدخلا دوما ضمن الادب جميع النصوص (سواء أكانت سياسية أو اقتصادية) ، وهما يتحدثان بهذا المعنى عن « الادب الاشتراكى والشيوعى » (راجع البيان) .

ان تحديد العلاقة التى تربط الادب بالايديولوجيات سيتم اذن عن طريق تحديد معالم ما هو « أدبى » وتعيين الاحكام الايديولوجية المسبقة

التى تختفى وراءه ثم الكلام الثانوى الذى يعاضده (الكلام النقدى والفلسفى) . لقد استطاع لينين أن يبين أن الادب الروسى خلال القرن التاسع عشر كان يعمل « كمنبر دفاع » . كما أن الادب فى البلدان التى تناضل ضد الامبريالية من اجل التحرر الوطنى ، قد استطاع ان يتبنى ثقافات الاقليات المستغلة والفاظها وعاداتها وتقاليدها وتصوراتها الاسطورية (الادب الهندى والاسود مثلا) دون أن يغترب ويسقط ضحية ثقافة بورجوازية . كل هذا يبين لنا انه من الصعب علينا أن نحدد ، دون فكر انتقادى ، معالم أدب يتعين بذاته ، أو ماهية للادب خارجة عن التطورات التاريخية المعطاة . لذا فان البحث الماركسى عن رابطة نوعية بين الادب والايديولوجيات يقتضى اشكالية عامة ، تتوفر فيها الشروط الثلاثة الاتية :

1) بأى معنى تمس مسألة الايديولوجية الادب فى وظيفته ووضعه وواقعه الاجتماعى ؟

2) سؤال متعلق بتحليل ماركسى لمفهوم الايديولوجيات ووجودها.

3) دعوة **مادية و تاريخية** تهدف الى ان تبين أن مسألة العلاقة بين الادب / الايديولوجيات ليست مشكلة تطرح **داخل الايديولوجية** فحسب (ادراك العلاقة بين البنيات العليا فيما بينها عن طريق ربط مضامينها)، بل انها تطرح ايضا وبالاحرى **خارج الايديولوجية** وذلك بأن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات المجتمعية والوسائل المادية المنتجة والمولدة للايديولوجيات . واذا كانت المسألة داخل الايديولوجية وحدها ، ادركنا أن الامر يتعلق بمسألة علمية . الشىء الذى يقتضى معايير تميز الايديولوجية عن العلم .

وبما اننا نروم هنا اعادة النظر فى « الادب » ، فاننا سنقتصر على رسم الخطوط التى تسمح لنا بارساء مفهوم الايديولوجية توضيحه مع هذا التحفظ النظرى الاول : لا يتعلق الامر هنا باعطاء تعريف نظرى لما

هى الايديولوجية عند الماركسية ، بل بتحديد نمط استخدامها ، ذلك التحديد الذى من شأنه ان يمهد لوضع نماذج تاريخية للاديولوجيات فى اطار النظرية الماركسية لانماط الانتاج والصراع الطبقى .

يمكننا ان نستبعد ، فى البداية ، معنيين لمفهوم الايديولوجية ، وهما أما خاطئان او من الضيق والخصوصية بحيث لا يسمحان بتصور اشكالية عامة :

المعنى الاول : اذا تبنينا وجهة النظر التى ينظر بها كتاب (الايديولوجية الالمانية) ، يمكننا أن نفهم من كلمة ايديولوجية انعكاسا مقلوبا ، مشلولا ومشوها للواقع . وتكون الايديولوجيات هنا هى انساق التمثيلات الوهمية والمثالية لكونها تجهل اسسها المادية . وانطلاقا من هذا المعنى الصحيح ، الذى نجده فى نصوص ماركس ، يمكننا أن نجعل من الايديولوجية عملية يتسم فيها « الاعتراف بالامور الراهنة وتجاهلها » ذلك الاعتراف والتجاهل اللذين يطبعان أعمال فويرباخ على حد قول ماركس . والحال اننا فى هذا المجال (الذى سنرجع اليه فيما بعد) سرعان ما تنزلق نحو تعريف ضيق لكلمة ايديولوجية تلك الكلمة التى لا تقبل التعريف الا بالنسبة لما هى ليست عليه : أى معرفة ووعيا صحيحا حقا .

ومن الناحية ، نستطيع أن نعد موقف (لوكاش) الشاب موقفا نموذجيا . وهو الموقف الذى يتجلى فى كتابه (التاريخ والوعى الطبقى) ذلك الكتاب الذى انتقده (لوكاش) فيما بعد ، والذى يمثل النزعة اليسارية النظرية التى اتسمت بها الاممية الثالثة . يميز لوكاش الايديلوجية ، **كوعى خاطىء** جزئى يتمتع باستقلاله عن الكل المجتمعى ، عن **الوعى الصحيح** الذى يفصح عن الكل المجتمعى والذى تتبناه البروليتاريا ، تلك الطبقة التى تحمل وعيا ذاتيا بحركة التاريخ . يوضح لنا هذا المثال جيداً خطر مثل ذلك التعريف : لا لان النظرية الماركسية

تجد نفسها بكيفية هيجلية ، وقد غرقت فى الوعى الصحيح لبروليتاريا تحولت الي ذات فلسية فحسب (الشىء الذى يقضى على التمييز اللينينى بين النظرية العلمية والوعى الاجتماعى) ، بل لان كل تخصص حتى ولو كان علميا ، يصبح استلابا و تشيؤا . وفى هذا المنظور ، لا يمكن للجدل الا ان يكون نقديا ، والا تجاوزا للجزئى لصالح الكل . ويمكننا ان ننتقل بالتعاقب من ادب **انتقادي** ، ينتقد جميع الاستلابات ، الى ادب **حق** لكونه يعبر عن الكلية المتحققة لطبقة أو ثقافة بروليتارية . وبهذا المعنى ، كان بامكاننا ان نجد فى أساس مفهوم الثقافة البروليتارية الذى صاغه (بوغدانوف) منذ سنة 1911 ، نفس المفهوم عن الايديلوجية . الطبقة هى العامل المغير ، عامل التحويل الاشتراكى للمجتمع ، وهى بما تدخل على ذاتها من تحسينات اخلاقية والجتماعية ، تنتج ثقافة نوعية تتمتع باستقلال ذاى . وان الجدال الذى خاضه لينين سنة 1920 ضد ممثلى (الثقافة البروليارية) يبين بوضوح كاف الى أى حد يتسم هذا الموقف بالنزعة المثالية والارادية . ولكن ما ينبغى ان نؤكد عليه هو أن تعريفا آخر للاديولوجية يرتسم امامنا ، وبالرغم من انه يظهر مخالفا للاول ، الا انه يرجع فى الواقع اليه ويشكل مكمله النظرى والسياسى .

المعنى الثانى : مقابل الايديولوجية باعتبارها وعيا خاطئا ، هناك **مفهوم** تعبيرى عن الايديولوجية ، اما على أنها تعبير موحد عن طبقة ما فى تلقائيها العملية ، أو على انها مجرد **انعكاس** يتبع حركة البنيات السفلى الاقتصادية . وعلى الصعيد السياسى ، نتبين بوضوح فى الاتجاه الاول النزعة الارادية التى ترى وحدة طبقة ما فى وعيها والتى تسعى فى الواقع الى التمادى فى اضفاء الطابع السياسى على الايديولوجيات والى المبالغة فى تقدير قيمتها . لقد انتقد لينين اشد الانتقاد ، حينما اوضح المستوى النوعى للسياسة (الحزب ، الدولة) ، ما اطلق عليه المفهوم البيداغوجي للسياسة ومحاولة ارجاع أحداهما للاخرى . انه انتقاد للنزعة العمالية فى الادب كمطلب للمثقفين البرجوازيين الصغار ولاكثر

فئات البروليتاريا تخلفا . ولكن هذا لاتجاه يتغذى على الاخر . وربما كان الاتجاه الثانى هو الاهم ، اقصد ذلك الاتجـاه الذى اتخـذ اسـم « النزعة الاقتصادية » فى تاريخ الحركة العمالية ، تلك النزعة التى ميزت نظرية الاممية الثانية وممارستها . واذا كانت النزعة الاقتصادية تعنى ، سياسيا ، ان السياسة تابعة للاقتصاد (الشيء الذى يؤدى الى مفهوم جبرى عن التطور التاريخى) فانها تقوم ، فى مستوى الايديلوجية ، على ارجاع الايديلوجية الى ظاهرة زائدة لا قيمة لها ، والى اعتبارها انعكاس / ميكانيكى / للبنيات التحتية ، كما انها تقوم على نزع الطابع السياسى عن الايديلوجية لصالح نزعة مثـالية أخلاقية . لقد كـان برنشتـاين والتعديليون يرفضون فى الواقع ، متسترين تحت اسم نزعة لا ــ هيجيلة الجدل المادى . ولقد بين لينين منذ ظهور مؤلفه : (المادية و النزعة النقدية التجريبية) ان ذلك الموقف لم يكن ليخلو من عودة الى الكنطية الجـديـدة .

ومجمل القول ، فاننا اذا ما تجاهلنا وجود صراع أيديلوجى حقيقى فى ميدان الادب ، فاننا نخلص الى الانتقائية السياسية ، والى دراسة تقنية أو الخلاقية للبنيات العليا . و ينتـج عن هذا الاقصـاء المزدوج مظاهر العلاقة التى تربط الادب بالايديلوجيات .

خلافا لاصلها التاريخى ، لايمكن لايديلوجية ان تتحدد كمنظومة من الافكار يمكن وضعها فى مجال التمثلات وحدها . وذلك لعدة أسباب . ويمكننا ان نتبنى بهذا الصدد بعض التحليلات التى قام بها لينين و (غرامشى) والتى هى تعميق لتحليلات ماركس وأنجلز . فعندما يؤكد هذان الاخيران فى كتاب (الايديلوجية الالمانية) ان « الطبقة التى تمتلك وسائل الانتاج المادى ، تمتلك فى ذات الوقت ، وسائل الانتاج الفكرى » وانه ينبغى تحليـل الانتـاج **الفكـرى** كمـا هـو متمثـل فى لـغـة السيـاسـة ولغـة القوانيـن والاخـلاق و الميتـافيـزيقـا عنـد شعـب مـن الشعوب » ، فانهما يعتبران ان الايديلـوجية تتمتع بحقيقة الانسـاق الدالة ، فاتحين بذلك الطريق لوضع نماذج لمنظومات الاشارات المتمايزة

(وجود الاساطير والطقوس والصور والمفاهيم) ، ثم انهما ، بالاضافة الى ذلك ، يعتبران ان الايديلوجية تتمتع بما يمكن أن نطلق عليه حقيقة المؤسسات الاجتماعية المرتبطة بذيوع الايديلوجيات واعادة بنائهـا . هاتان النقطتان وجدتا تحليلهما عند كل من غرامشى ولينين .

ولنتحدث عن (غرامشى) فى البداية ، لاننا نجد فى مؤلفاته الحاحا خاصا على ابراز السمة اللاارادية واللاتعسفية للاديلوجيات : أعنى على ابراز دورها **العضوى** . ان الايديلوجيات تخلق المقـولات الفـاعلـة ومنظومات المواقف التى تنظم الجماهير بفعالية سيكلوجية لحد انها تحدد المجال الذى يتحرك فيه البشر ويعون تاريخهم الخاص . وان هذه الخاصية العضوية تقتضى ان نبين نوعيه الفعالية الايدياوجية واشكالها ، ذلك الاشكال التى تعمل بالنسبة لطبقة معينة « كاسمنت مجتمعى » يقوم بتلحيم هيمنة طبقة او نضال من أجل تغيير المجتمع وذلك بتحقيق سيادة تاريخية ذات شكل جديد (طبقة العمال وحلفاؤها) . ثم ان الايديلوجيات لا تقبل التحليل فى مجال العلاقات طبقة / وعى وحده بل انها تقتضى تحليلا فيما يطلق عليه (غرامشى)« الجهاز الفردى للسيادة » (الكنيسة او المدرسة مثلا) ، وبعبارة أخرى النسق العـام للوظيفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للايديلوجيات .

يوضح لنا هذا لماذا لا يمكـن لتحليل العلاقة التى تربـط الادب بالايديلوجيات أن يقتصر على تحليل يتم **داخل الايديلوجية او داخل الادب.** ذلـك لان الايـديلـوجيـات لاتـوجد فحسب فى الادب بـل هنـاك ايديلوجيات للادب ، ووظيفة اجتماعية لهـاتـه الايديلوجيـات داخـل نظام التعليم الذى يسمى أدبا ، وما يقتضيه ذلـك النظـام من انتقـاء لا ديمقراطى عند ولوج باب الثقافة ، وفى هذا النظام ذاته هناك صراع طبقى يجب خوضه ضد الممارسات الطرقية والخرافية وايديلوجيـات المؤسسات التى تنتجها . وهكذا فان احداث مـايو 1968 التى طبعت أول مجابهة طبقية اقتصادية وسياسية ، فى الظروف الراهنة التى تعرفها الراسمالية الاحتكارية للدولة ، ان تلك الاحداث تسمح لنا بان نفهم فهما

اعمق المكانة التي يمكن للادب أن يحتلها فى التشكيلية الاجتماعية الفرنسية و فى نظام التعليم الفرنسى مع التقسيمات الاجتماعية والهرمية التى يقتضيها ذلك النظام . وخلاصة القول ، فان ذلك النظام يحافظ على عدد من عمليات الفصل التى يمكن أن تصلح بمعنى تقنكراطى : فصل بين أدب والعلم ، بين الفنون الجميلة والتقنية ، بين النزعة الانسانية المجردة (المفهوم الرومانسى الحدسى للادب) والايديلوجية التقنكراطية . ان الفصل الاول فصل حاسم ، لانه يعنى أنكار كل تدريس علمى للادب ، وعرقلة مستمرة لكل محاولة قد تكتشف فى الانتاج الادبى عن ممارسة قد بلغت المرحلة العلمية . لذا فانه لا يمكن فصل الايديلوجيات عن الوظيفة الاجتماعية التى تقوم بها . ونحن واجدون فى مؤلفات (التوسير) العناصر النظرية التى تذهب هذا المذهب ، وذلك حين يؤكد على ان الايديلوجيات توجد كـ « موضوعات ثقافية تدرك وتقبل وتعانى ، موضوعات تؤثر على الناس فى مستوى علاقاتهم الحقيقية والوهمية بالعالم » . ان تحليل الادب من حيث هو الميدان الاجرائى لنوهم المجتمعى ، يعنى اظهار علاقاته مع الكلام الذى يمكن ان يسمى أدبا ومع الايديلوجيات العملية بالمعنى الذى يعطيه (التوسير) لتلك الايديلوجيات أى « للتشكيلات المعقدة التى تتركب من مفاهيم وتمثلات — وصور ثم هيئات — سلوك — أعمال — مواقف — حركات ، بحيث يعمل الكل كمعايير عملية توجه مواقف الناس — واوضاعهم » (6)

وبعبارة اخرى ، اذا كان يمكن أن نعرف الادب من حيث هو كتابة ، على انه « ممارسة » فذلك شريطة أن نضيف بأن هناك ممارسة للادب ، ممارسة تتميز أولا بمظهر اللاديمقراطى (كما تبين ذلك سوسيلوجية الاداب) ، ولكنها تتميز كذلك بوظيفتها كمروج غير مباشر للايديلوجيات السائدة ، وبالاخص للايديلوجيات المثالية . وفى هذا الميدان ، مثلما هو الامر بالنسبة للمجتمع باكمله ، يقوم صراع بين ما هو قديم وما هو

جديد ، بين الايديلوجية السائدة والدراسة العلمية العامة (اللاتقنكراطية) للادب : ومجمل القول يقوم صراع من اجل **ممارسة جديدة للادب** .

يمكننا بهذا الصدد ان نرجع الى نظرية لينين عن الايديلوجية والى سياسته ولنفهم لماذا رفض لينين مفهوما تعبيريا ميكانيكيا عن الايديلوجية. فمنذ مؤلفه ما العمل ؟ (1902) الى نضاله ضد اللاتزوفيين (1908)، الى مناقشاته حول السياسة الثقافية 1918 نجد عنده ثابتا نظريا يقوم من جهة فى دراسة تعتبر المسائل المتعلقة بالايديلوجية مرتبطة بالمؤسسات الاجتماعية (نظرية الحزب او دراسة المسائل الثقافية انطلاقا من تحليل المستوى الثقافى للجماهير)، ومن جهة اخرى فى ضرورة التمييز بين النظرية الماركسية كعلم يتخذ طريقا مفتوحا (اى لا على انه مجرد تعبير عن تلقائية العوامل الاجتماعية وحدها) وبين الايديلوجية . الحال أن هذين التطورين لا يمكن الفصل بينهما : ان التمييز علم / ايديلوجية ليس مجرد تمييز ابستملوجى بل انه تمييز سياسى كذلك.

اذا لم تكن النظرية ، فى مجتمع طبقى ، وليدة تلقائية نضال الجماهير (بالرغم من أن تلك التلقائية هى عند لينين وعى فى طريقه الى النضج) فذلك لان الايديلوجية السائدة تظل هى ايديلوجية الطبقة السائدة . وهذا لا يصدق على مستوى « الافكار » فحسب بل حتى على نمط الانتاج المادى والمجتمعى لهاته الافكار والاساطير ومنظومات المواقف . ومن جهة النظر هاته ، هناك اختلاف كيفى بين الايديلوجيات السائدة ، تلك الايديلوجية البروليتارية ، تلك الايديلوجية « التى تعاد نظرية الاشتراكية العلمية والتى تربط النظرية بالممارسة » . وبعبارة اخرى ، ان التمييز بين الايديلوجية والعلوم ، الذى هو تمييز اساسى بالنسبة للماركسية ، لا يقضى على ، بل يقتضى التغيير الذى يتم انطلاقا من اللحظة التى يتم فيها تمكن الجماهير من العلم والثقافة . وهذا لا يعنى ، كما بين التوسير اختفاء الايديلوجية التى هى من مكونات المجتمع ، بل يقتضى أن تصبح الايديلوجية « أداة واعية للعمل فى التاريخ والتأثير عليه ».

وكما لا يمكننا ان نخلط بين الايديلوجيات ومجرد انساق الافكار ، لا يمكننا كذلك ، ولنفس الاسباب ، ان نوحدها مسبقا ونجمعها فـــى تعريف نظرى عام لا تاريخى . اننا لا ينبغى ان نتحدث فحسب عـــن نظرية ماركسية للاديلوجيه ، بل عن نموذج مـــاركسى للاديلـــوجيـــات ولوظائفها داخل نمط انتاج معين ، وفى ملابسات معينة للصراع الطبقى. لذلك يجد الادب نفسه اليوم وقد وجه اليه سؤال يهزه فى كيانه ذاته ، هو السؤال المتعلق بالايديلوجيات ، وبالضبط حول النقطة التى اشرنا اليها فى بداية عرضنا : أعنى تحديد معالم « ما هو أدبى ». لايعنى هذا مطلقا رفض التحليل العلمى للادب فى استقلاله النسبى ، بل فهم الشروط التى تسمح بذلك التحليل . اذا لم نرد أن نحيد عن عبادة الموضـــــوع الجميل كى نقع فى عبادة مواد العمل الادبى كغاية فى ذاتها ، فمن الضرورى أن نأخذ بعين الاعتبار المعايير الايديلوجية والمجتمعية التى تحدد معالم الادب .

ان الادب لايتمتع بالبداهة التى تتمتع بها منظومة تتكون من اشكال وأغراض ، منظومة لا زمانية ، غير قابلة للتحول ولا يمكن « تفكيكها » وان مثال (بريخت) ، ذلك المثال الذى ما زال صالحا ، أكثر من اى وقت مضى ، كموجه نظرى وسياسى ، ان ذلك المثال يوضح لنا تلـــك المسألة الوضوح الكافى . وان البحث عن علم جمال ماركسى لأرسطى ، يعتمد تحفظات لا هيجلية ودون أن يقع فى النزعات الصورية الكنطية الجديدة ، ان ذلك البحث ليس مرتبطا ببحث صورى فى « المسرح » كعامل على خلق مسافات . واذا كانت مهمة الاخراج الملحمى كما يلاحظ بنجمان (7) «هى ان يلح على علاقة العمل الممثل بما يعنيه فعل التمثيل» يعنى أن يقدم التمثيل كانتقاد للايديلوجيات (كما يبين ذلك التوسير فى مقاله تكون المسرحية الخالقة للمسافات نتيجة لوعى بريخت بالـــوظـــائـــف ضمن كتابه دفاعا عن ماركس) (7) ، اذا كانت مهمة الاخراج هى هاته ،

الايديلوجية للمسرح . ان جدل الحدث المسرحي والموقف الذي يتخذه الممثل على الخشبة ، وأن استحالة فصل المسرح عن العلم ، واللجوء الى منظومة الحركات الاجتماعية ، كل ذلك يعبر عن ممارسة جديدة لمسرح (لتمثيل الممثلين ، وللاخراج وللروح الجماعية المسرحية) . أن المؤلف يضع نفسه فى تلك الممارسة موضع المنتج فيتساءل ، كما يقول بنجمان « حول مكانه ضمن علاقات الانتاج » المجتمعية والادبية . وبهذا المعنى نستطيع اعمال (بريخت) ان نوضح لك دور الايديلوجية المسرحية ومجموعات صغرى تدخل تحتها . ولكى نتابع هنا مجازنا المسرحى ، ولدور المسرح كميدان ايديلوجى .

وكمقابل لذلك ، فان مثل هاته الممارسة يفترض أن الايديلوجيات هي عبارة عن منظومات نوعية مترابطة الاجزاء تشمل مجموعات علينا ان نتذكر تحليلات (الراسمال) ، تلك التحليلات التى عمقها لينين فى مؤلفه (نمو النظام الرأسمالى فى روسيا) ، والمتعلقة بالدور « الخالق للنماذج » والذى تقوم به الايديلوجيات داخل نمط الانتاج الاقطاعي . فحيث تكون العلاقات المجتمعية علاقات هرمية متدرجة شخصية ، قائمة على الانتاج الضعيف وعلى المستوى الهزيل لقوى الانتاج ، تتدخل العلاقات المجتمعية الايديلوجية ابتداء من مستوى البنية السفلى كعامل مهيمن يتجاوز المستوى الاقتصادى . وفى مثل هاته البنية الاجتماعية ، يقوم اى نص بدور رمزى ولا هوتى ، ويكون اللاهوت « هو الخشبة الايديلوجية التى تمثل فوقها جميع الصراعات الطبقية التى تكسو نفسها بذلك المعطف » كما يقول انجلز : « ان القرون الوسطى قد جعلت جميع الاشكال الايديلوجية من فلسفة وسياسة و تشريع أشكالا تابعة للاهوت وجعلت من تلك الاشكال أقساما له » (8) . وبالمثل ، فان الابحاث الماركسية المعاصرة حول نمط الانتاج الاسيوى تسمح لنا بأن نبين بانه ، فى مثل هذا النوع من المجتمعات التى تقوم على مجموعات

فلاحية تستغلها دونة مالكة تقوم بدور أقتصادى وتقنى ، تتشكل صوره كون موحد تنظمه قوة عليا تكون ، هى بدورها ، المكان الذى يتم فيه الربط بين الدلالات المجتمعية والدلالات الكونية . ونحــن نعثــر على علاقات متماثلة ومجازية متعلقة بالمجموعات طبيعية ــ سياسية فى بعض النصوص الموجودة ببلاد ما بين النهرين او فى مصر والصين حيث تعمل « الوحدة ملك ــ اله على تسييس العامل المتعالى ، الذى يصبح ضامن النظام الاجتماعى ، واعلاء العامل السياسى الذى يصبح المصدر القدسى للحياة والخصوصيــة » . (9) (أيون بانو) .

لقد استقينا هذين المثالين من المجتمعات قبل الراسمالية كى نبين بطريقة مختلفة العلاقة الوطيدة التى توجد بينما يعمل كـ **نص** وبيــن الايديلوجيات العملية التى تستثمره الى أبعد حد ممكن حتى فى طــرق الكتابة وأساليبها ، و أخيرا بين الممارسات الطبقية التى تساند ذلك النص

لنستخلص ما يمكننا استخلاصه مؤقتا :

اذا كان الادب قد وجد نفسه يمس بالسؤال حول معالمه وحدوده فذلك لان مهمة النظرية الماركسية للادب ، فى نظرنا ، هى فى أن تربط علــم الدلالات بما هو نص أدبى و بالمادية التاريخية والجدلية وذلك فيما يتعلق بتصنيف الايديلوجيات وترتيبها . ان تلك النظرية اذا ما ارادت أن تكــون مادية ، لا يكفيها أن ترجع الى التحليل الاجتماعى الاقتصادى فحسب ، بل الى اشكالية تتعلق بالدراسة المادية للصور والاشكال ، تلك الاشكالية التى نجدها مطبقة فى الكتابات النظرية لبريخت و ايزنشتاين . ان وضع حدود الادب ومعالمه موضع سؤال ، لا يقتضى اتخاذ الطريق العقيم ، طريق « الادب » (أدب الرفض ورفض الادب ــ واهمال جذرى لمؤلفات المــاضى) بل يدفع الى تعميق أشكاله التاريخية والبحث عن ظهورها واختفائها وتحولها والكشف عن منطق انتاجها . من هنا نتبين لماذا رفض (بريخت) كل نظرية درامية ارسطية « لا تسمح بــاخذ التنــاقضــات الموضوعية بعين الاعتبار » (10) فى ذات الوقت الذى ناضل فيه من أجل

« مسرح يتناسب وعصر العلم » وفى الوقت الذى راى فى شكسبير « واقعيا كبيرا » لانه « كان يحمل دوما الى الخشبة كمية ضخمة من المواد الخام » و فى مؤلفاته « انفصالات ثمينة يناضل فيها الجديد ضد القديم » . ولكن علينا أن ندرك ، قبل كل شىء ، بأن الصراع الايديلوجى وباعادة النظر فى قيمتها و بالنضال من أجل ممارسة جديدة للثقافة ، فى الميدان الادبى لابد وأن يبدأ اليوم باعطاء الثقافة صبغة ديمقراطية وباعادة النظر فى قيمتها وبالنضال من أجل ممارسة جديدة للثقافة ، ثقافة من نوع جديد .

المراجع :

1) - B. Brecht. **Ecrits sur le théâtre** (L'Arche) et **l'Achat du cuivre** (l'Arche).

2) - **Théorie de la littérature** Seuil.

3) - **Etudes philosophiques** - Ed. sociales.

4) - **«De l'évolution littéraire»** - Théorie de la litterature.

5) - Sémiotica - N° 1/2 1969.

6) - Cours ronéotés pour scientifiques.

7) - W. Benjamin **Essais sur B. Brecht** - (Maspero).
L. Althsser «Le Piccolo Bertolazzi et Brecht». - **Pour Marx** - (Maspero).

8) - **L. Feuerbach et la fin de la philosophie classique allemande** - Ed.. sociaes.

9) - **Sur ee mode de production asiatique** - C.E.R.M. Ed.. Sociales.

10) - L'Achat du cuivre. pp. 177-181.

البشـــير الوادنونـــى

أزمة البحث عن بطل مفقود

« فى قصص خناثـة بنونـة »

(فى قصص خناثــة بنونـــة)

يمكن القول أجمالا ، مع وجوب التأكيد على الخصوصيات النوعية للفترات التى أحاطت بظهور المجموعات الثلاث ، بأن خناثة بنـــونه ، حاولت ، عبر قصصها القصيرة ، أن تعكس ظاهريا ، نمطا محددا من مناخات الوضع الاجتماعى العربى العـــام ، المعتم والمتخلف الذى يتميز بسيادة مختلف ضروب القهر ، والجمود والزيف ، وهى مظاهر ، يشف عنها واقع موبوء ، يلفه الصمت ، والهزيمة والموت . هذا الواقع لـــه ماض ، لان كل تلك المظاهر ، تضرب بجذورها فى أعماق التـــاريـــخ العربى السحيق . انه ماض مستمر ، كف فيه الفرد (رجلا وامرأة) عن أن يكون انسانا ، قبل أن يكون بطلا ، لانه فقد فيه هويته الحقيقية ، وكثيرا من مقوماته وجوده البشرى المشروع ، بعد أن سقط فريســـة لرتابة الجمود ، وسيطرة التقاليد ، وهزته علاقـــات اجتماعية عفنة ، كبلت حريته ، وقتلت فيه كل مبادرة وقوة .

يتمثل هذا الوضع الاجتماعى المفروض ، على الصعيد الذاتى ، أى من منظور أنثى بورجوازية متقفة ، فى واقع الرجل : واقع القمـــع الابوى ، الفكرى والمادى المسلط على المرأة ، قصد استعبادها ، وكبتها ، وتعطيل امكاناتها فى الخلق ، والمشاركة الاجتماعية . بهـــذه الطريقة ،

استطاع الرجل ، خلال ماض سحيق و واقع ماثل ، أن يهين المرأة ، ويسلبها طبيعتها الانسانية .

لقد عاشت (ليلى) ردحا من حياتها تحت وطأة هذا المجتمع الابوى ، وخبرته بما فيه الكفاية . ومن خلال تجربتها الحياتية نستنتج احتكت بالرجل ، و تمرست به ، عرفته أبا وصديقا ، أميا عاطلا ، ومثقفا مسؤولا . كما عاشرت المرأة وعايشتها أما وأختا ورفيقة . وكانت النتيجة في كل ذلك ، مأساوية قاتلة ، لأن الرجل كان دوما هو القوى المتسلط ، والمرأة ، الضعيفة الذليلة . الا ان (ليلى) لم تقتنع بواقع السيطرة ، فهى ترفض أن تصدق الاوهام التى يقدمها الواقع على أنها حقائق راسخة . لقد أدركت كأنثى تملك وعيا ما أنها ليست مع ذلك الضحية الوحيدة ، لان الهزيمة الشاملة ، لم تكن هزيمتها وحدها . انها هزيمة الرجل كذلك ، بل هى هزيمة الجميع !! و لعل الامر أن يكون فى هذه الحالة أشد قتلا ، وهذا بالضبط ما يحز فى نفسها ، و يزيدها حنقا ويأسا : أن يدعى الرجل البطولة ، ومع ذلك يسقط ، ويستسلم . وهذا أيضا ما يثير سخريتها وتمزقها فى آن واحد ولكن لا بأس ، ما دام البطل الحقيقى — الانسان — لم يهزم . لذلك عندما يضطهدها المجتمع ، فهى تلجأ الى الرجل ، عله ينقذها ، فتجد على يديه الخلاص . ولكن (ليلى) حين تركن الى الرجل انما من أجل ان تصنع فشلها الخاص . لقد بات مشروعها خاسرا ، لانها طلبت من الرجل شيئا ، هو نفسه يفتقده . ومع ذلك ، فحين يخذلها ، ويخيب أملها فيه ، يزيد ذلك من لوعتها ومن صمودها فى نفس الوقت ، و تقرر ان تخوض معركتها منفردة : تغضب وتتحدى ، وترفع شعار المواجهة والادانة ضد المجتمع والرجل على السواء ، دون أن تلهيها المعركة عن البحث عن البطل — بطلها المفقود . ولما يعييها البحث ، وتتأكد من اخفاقها فى العثور على البطل المنشود ، تقوم بعملية تعويض ذاتى بأن تنصب من نفسها بطلا ، ولم لا ؟ وهل فى ذلك أى ضير ، ما دام البطل مفقودا ! ؟

ان الدفاع عن حريتها وانسانيتها مسالة غدا واقعها الاجتماعى (واقع الرجل بالاخرى) يطرحها بالحاح كبير . لذلك تعد (ليلى) مشروعا واسعا ، وتخطط لنفسها استراتيجية تستقطب أهم مجالات السقوط والهزيمة على أساس أن تبدأ المعركه على مراحل تتناسب ونوعية السلاح (الوعى) المتوفر . هكذا قررت أن تشن الحرب ، فى واجهات ثلاث : ذاتية ، قومية (عربية) ووطنية ، تقابلها المواضيع الكبيرة التى تشكل المحاور الاساسية فى المجموعات الثلاث :

- مشكلة المرأة : أغلب قصص المجموعة الاولى وقصص أخرى متفرقه فى المجموعتين الاخريين .
- قضية فلسطين : قصة النار والاختيار . مسيح لا ينهزم ، الحرب والاعماق يايافا ، نداء الدم — منى ولا موت (من المجموعة الثانية) الصوت الممزق ، والصوت الاخضر (من المجموعة الاولى) الورق المقوى ، والليل والنهار (من المجموعة الثالثة) .
- المسالة الاجتماعية : حوالى ثمانى قصص من المجموعة الاولى ، وأربع قصص من الثانية ، ومعظم قصص المجموعة الثالثة .

هى و هو :

تقدم (ضياع) تجربة أنثى فى حالة انفصال وشرود ذهنى ونفسى تعانى من ألم الاحباط والغربة : ((اننى أتألم فى صمتى وهجرى ، فى وحدتى ، تكلم أنا ، الحقيقة الثابتة : الالم)) . تهرب من مجتمع الاب ، وترفض أن تقابل عمتها أو غيرها من أفراد الاسرة . انهم جميعا لا يفهمونها ولايرون فيها سوى الفتاة المتكبرة . أما أمها فهى تقسو عليها هى الاخرى : ((من تكونين ، أنت كسائر البنات وكفى)) ومع ذلك فالبطلة لا تكره أمها ، فهى ليست مصابة بعقدة الكترا حتى تعاملها

بقساوة مماثلة . انها فقط تشفق عليها وفي ذلك تعبير عن وعيها المتقدم بالنسبة لوعى الام . أن هذه الاخيرة تريد ان تخضع ابنتها لقانون الاب وهي لاتدرى ولا تعى أنها حين تعمل ، انما تقوم بدور مدير السجن .

ان الام لازالت ضحية الرجل . والصديق هو الاخر ، لا يفهمها ، ولا يفيدها ((كان صوته نائما ، كما هو دائما ، لا يستطيع ان يستنبط ليوحي بسؤال بجواب ، بعون ما)) انه عاجز ، لذلك لا نأبه له ، حين يناجيها، ويفاتحها بحبه ، لانه يريد فقط أن يمثل دور الرجل المسلط ، الشبق ، وهذا الصنف من الرجال سرعان ما يسقط ، ينهزم حين يواجه بالصمت والصمود (عاصفة من عبير) . هكذا تظل البطلة ، وحيدة ، تحمـــل غربتها وعذابها ، ساعية الى تحرير نفسها وتحريره هو (الـــرجـــل) و ((هذا المطيع البشرى المنفى فى عالم العجز والتواكل والخنوع)) (تراتيـــل حـــزينـــة) .

وعندما يحاصرها الاب ويثير غضبها بموقفه اللاانساني ، لا لسبب سوى لكونها ولدت انثى ، تتمنى لو استحالت الى رجل ــ أخيها احمد مثلا ــ كيما تتخلص من لعنة الاب ومن خطيئة الام . وطالما ان الامر (المسخ) مستحيل ، فلا أقل من أن تثور وترفض وجودها المزيف الذى صنعه الأب (المجتمع) لتفرض بدله وجودها الحقيقى وتدافـــع عـــن قضيتهـــا الجوهريـــة :

((ما أفظع أن أكون أنثى بين قوم لم تتجدد قيمهم بعد ، لكـــاننـــى أريد ان اختصر كل النساء فى واحدة لاحطم قيدا جررناه من دهور ... ومع ذلك فما أعذب أن أكون أنثى بقضية)) . ان قصة (رب انى وضعتها أنثى) ادانة للمجتمع البورجوازى المترف ، الرجعى ، الذى يحاصر المرأة من خلال سلطة الاب ، حيث يصبـــح الحلـــم بالبطـــولة (برمثيوس) هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للخلاص . غير أن نصا آخر (ذبذبات رجة) يضيف عنصرا جديدا ، وهو أن المرأة ، فى حاجة قبل كل شيء الى معرفة كنهها ، وأن عليها اذا ارادت أن تحقق بطولتها ، أن

تتغلب على عجزها . ولكن البطلة لاتنتظر ، ولا تفكر حتى فى وسيلة خلاصها . انها تتحدى وتريد « أن تعيش قدرتها العاجزة ، وتتحملها ، وتسير بها لتقطع بها الازمنة والامكنة وغربها » . لنتحمل ، نحن كذلك ، هذا الاستغراق الوجودى ولنقل ان البطلة تمر هنا بمرحلة قلقة لا زالت تلوذ فيها بأذيال الغربة وتتساءل عن الوجود وحقيقة الانا والمصير .

ورغم ذلك فهى لاتفقد صلتها بالرجل . ففى (العيون المبرقعة) نجدها تعيش ملالة قاتلة تجعلها لا ترى فى (محمود) سوى رجل لا يختلف فى شىء عن سائر الرجال . انها تحبه وتجالسه ولكنها تفتقد فيه البطل . وهذا ما يعكسه أيضا نص (الوجه المنعكس) : هى فى الشارع اذ يتناهى اليها وقع خطوات رجل يلاحقها . يقترب منها ، ويبدى لهـا رغبته فى التعرف عليها ، تتناول البطلة عن ثقافتها وكبريائها وتتقمص شخصية أمها فتقول له : « تفضل » فيعترف لها أثر هذا « انك أعجبتنى » فتنفر منه ، وتحتقره لانه أهانها :

« كل شىء الا هذا ، واستردت كل اعتبارها » انه ليس انسانا ، هو رجل فقط ، ثم تعود الى بيتها لترى صورتها منعكسة فى وجه أمها : « انا الفتاة فى عالم مثل هؤلاء الرجال » .

ويحدث نفس الشىء فى (حكاية لمسة) حيث تحاول (هى) الاقتراب منه (هو) والانفتاح عليه . ترغب فى أن تفتح معه حوارا ، بحثا عـن الانسان ــ عن البطل فيه ، فاذا به لا يرى فيهـا سـوى (الجوكندا) فترفضه لهذا السبب بالذات . وتطفـى المسحة الوجودية من جديد عـى (المتشردة) التى تريد أن تتحرر من كل شىء حتى من نفسها ووسطها وعالمها ، والحياة التى سكبت فيها . وندرك نحن أنها لاتعدو أن تكون ثورة على الواقع الذى صنعه الرجل الاب ، والعشيق الذى يطمح فى ان يصبح زوجا . فتهرب منه وتتيه وتحتج « يريدنى صنما أتغير ثلجا بين ذراعيه ، يحولنى الى هيكل ينحنى لاشاراته ، لرغباته ، لنداءاته .. وماذا سيمنحنى ؟ طولا ، واكتافا ، وذراعين تتعلقان بـى ، تمسكان بى

عن الانفلات لابقى له وحده ، لبيته ، لقيده ، لابنائه » . ان الرجل المسؤول المثقف ، مثل الاب والزوج ، في معاملته ونظرته اليها : يتآمر ضدها ويقمعها . (بيت التمارف) تؤكد أن زبون المقهى مخبر عنصر آخر في نظام القمع الاجتماعي ، وجهاز من اجهزة مجتمع الرجل الذي يحاصر المراة . فاذا كان الاب والاخ يمثلان تلك الاداة في البيت كما تريد ان تعبر عن ذلك قصة (النظرة المتواطئة) ، فان المسؤول يقوم بالدور نفسه في الشارع وفي المؤسسات الاجتماعية ، لهذا تحمل الانثى (البطلة) مسؤولية عجزها عن الاحتجاج والرفض ، عندما تتعرض للغبن من طرف اليهودية الجشعة التي باعت لها معطفا بثمن خيالي ، للاب ولنظامه القمعي .

المراة ضد الرجل ـ المراة فوق الرجل :

الافكار التي تسعى النصوص السابقة الى ايصالها وتاصيلها واضحة : البطلة فتاة يافعة بورجوازية ، ومثقفة ، تعيش خواء وجوديا وعاطفيا ، تبحث عن نفسها وعن مبرر لوجودها . لقد اكتسبت بفضل ثقافتها وبفضل جملة عوامل اخرى موضوعية ، وعيا ما ، جعلها تصل الى نوع من الفهم لوضعيتها كفتاة مستلبة ، مضيعة ، فتشن نتيجة لهذا الاحساس بالاستلاب ، ثورة ملؤها الغضب على الرجل ، وعلى المجتمع الابوي . غير ان الشعور بغياب بطل حقيقي ، وتضخم الذات عندها ، يدفعانها الى البحث عن بديل ، عن مثال ينقذها من وضعيتها الاستلابية ويشعرها لا بانوثتها ، بل بانسانيتها ، لذلك لا غرو بعد هذا كله ، اذا رايناها تحلم بان تكون هي نفسها ذلك المسيح ، المهدي المنتظر ، الذي يحرر القطيع . ان كل الرجال صدموها ، لانهم جميعا ينظرون اليها نظرة خاطئة . واذا كانت البطلة تعاني الما نفسيا واجتماعيا ، فبسبب تسلط الرجل وقصور وعيه . اما هي ، فتبدو اكثر نضجا ، اكثر وعيا بمشكلتها كانثى . ان فهمها لهذه القضية يتجاوز ويتفوق على فهم الرجل . البطلة تضع مشكلة المراة في اطارها العام : الهزيمة العامة الموروثة . اما

الرجل فهو فى رايها تافه ، وشبقى ، وفى أحسن الحالات تائه غريب ، مثلها ، ولكنه فى جميع الحالات سلبى ، فاقد الفعالية والرجولة : خصى. خناثة هنا تلامس مشكلة المرأة دون أن تتعمقها . فهى لم تضع الاصبع على الاسباب الجوهرية الكامنة وراء شقاء المرأة وشرطها الاجتماعى التعس . والذى يغرب عنها فى هذا الصدد بالذات هو ان علاقات الانتاج التى هى علاقات استغلال فى ماضى و واقع ما تريد ان تعكسه تجربتها الفنية الاولى هذه ، هى السبب الرئيسى فى وضعية الانثى المزرية . والتغاضى عن هذا الجانب هو ما حال دون طرح مسالة تنوير تلك العلاقات ، ومعالجة مشكلة الانثى على ضوء الصراع الطبقى الدائر ، لا على اساس صراع ثنائى بين الرجل والمرأة كما فى القصص ، المشار اليها ، ان العلاقات الاجتماعية القائمة على القهر الاجتماعى والنفسى ، والفكرى ، ومن ثم الاقتصادى هى السبب الرئيسى فى استغلال الانسان للانسان ، هذا الاستغلال الذى كان فيه استغلال الرجل للمراة اساسيا فى القديم ، ثم اصبح ثانويا فى الوقت الراهن بسبب تطور النظام الراسمالى ، الامبريالى ، ثم ان الكاتبة لا تطرح كذلك مسالة المراة الكادحة ، ولا ضرورة تشغيلها . والحق اننا نفهم من خلال النصوص لماذا لم تتناول خناثة معضلة المراة بطريقة علمية وبوعى ناضج ، ولماذا اقتصرت على قضيتها وحدها ، وهى قضية فرعية ، وغير واردة من زاوية ما .

اما غربة البطلة ، فهى تذكر كثيراً بغريب كامو ، الذى يبدو فى اتم حالات الضجر ، والقرف ، ويكتشف أخيرا انه كان وما يزال سعيدا على الرغم من برمه وتمزقه الذى ستمر من بداية القصة الى نهايتها . وفى هذا تشويه ، ليس فقط لحقيقة الفن ، بل كذلك لحقيقة الصراع الاجتماعى المحتدم داخل واقع معطى .

القضية الكبيرة ــ الهــزيمــة :

يظهر ان مشكلة فلسطين تأتى فى مقدمة العوامل الاساسية التى فجرت فى نفس خناثة ينبوع الكتابة والادانة . على أن اهتمام الكاتبة بالقضية القومية لا يفسر فقط بالاثر الذى خلفته النكبة ثم الهزيمة فــى نفسية المثقف العربى عموما ، ولكنه يفسر على الخصوص وبكيفيــة موضوعية بالنزعة المتولدة عن النكسة (غضب ، نقد ، ادانة ...) التى كشفت بالملموس عن التناقضات الطبقية والمواقف الفكرية المتباينة التى ينطلق منها المثقفون العرب فى تحليلهم وتثمينهم لنتائج الهزيمة . ان سنوات ما بعد خامس يونيه دللت على ان هؤلاء المثقفين لم يزيدوا فى دراساتهم واعمالهم الفنية ، على أن عبروا مرة اخرى ، عن مواقف، وايديولوجيات طبقاتهم ازاء معضلة قائمة . ومن هذه الوجهة نرى ان كتابات خناثة لا تتجاوز فى مضامينها الفكرية وآفاقها النظرية حدود ذلك السيل الجارف من الممارسات الفنية والافرازات الادبية التى تمخضت عنها الهزيمة ، وحمل لواءها نزار قبانى . وبالاضافة الى ذلك ، هناك بالنسبة للنتاج القصصى الذى كتبته خناثة ، اعتبارات اخرى اثرت بكيفية جلية وعميقة على فهم هذه الاخيرة لفن الكتابة عموما ، والقصة القصيرة بوجه خاص ، سنعمل على توضيحها فيما بعد .

فى (الصمت الممزق) و (الصمت الاخر) تعانق البطلة (الكاتبة) جو المأساة ، النكبة ، اى واقــع الصمت المفروض بالحديد والنــار ، وخيانة الاقطاع والعملاء . ان البطلة ، وهى على مشــارف الحدود الاردنية الفلسطينية تتمنى لو كان اهلهــا هنا ليمـزقــوا الصمت ، و ((ليسحقوا هذا الحدود المفتعل)) . غير ان الاسلاك التى تحول دون الاتصال بالمرأة الفلسطينية تثبت ان العرب ماتوا ، وهى حقيقة يؤكدها كذلك تقسيم القدس ، ومناظرها الثائرة التى جعلت البطلة تحزن على تشبيه العرب بالبقر . فحتى هنا نفتقد البطلة . الا ان الكاتبة —

كما تدل على ذلك نصوص كثيرة ، تستنجد بالبطل الجديد ، المقاومة ، وتعبر عن رغبتها فى الارتباط بثورته .

فى (نداء الدم) يمتزج صوت الام ، بصوت فلسطين ، وتعلن (يافا) عن اصرار الفلسطينية على العودة ، وتشبثها بالارض وبانطلاقة « فتح » فى حين تبلور (قتلى ولا موت) أهمية دور المرأة الفلسطينية فى المعركة ، ونضالها من أجل العودة مع جيل النصر والامل — سعد — رغم الارهاب وتربص العدو . أما الفتح — العودة ، فلن يكون الا بالسلاح والثورة المستمرة ، ذلك أن المقاومة والتسلح بالعلم والتقنية هى الاساليب المقبولة والناجعة فى عصر الطغيان والظلم ، حيث لا ايمان سوى الايمان بمنطق القوة ، هذا على الاقل ما تقرره خناثة على لسان المسيح ، ومحاوره ، الصوت الوحيد الذى نجا من المذبحة ، حيث يعلن الصوت للمسيح الجديد ، أن يهوذا غدر به ، وأفنى أبناءه بالعلم والدولار — آلهة جديدة — لكن المسيح يتمسك برسالته السماوية وينفخ فى الصوت (العرب) اليائس ، ينعشه بروح منه ، ليعاود المعركة من اجل النصر ، ولا يفوته فى نفس الوقت ان ينصحه باستعمال نفس سلاح العدو . وهنا يبرز الموقف التوفيقى : العلم / الدين ، الذى تتبناه الكاتبة كحل لازمة سياسية وحضارية قائمة .

وتعكس قصة (النار والاختيار) مثل قصة (الحرب والاعماق) قمة الانكسار ، والوضع السيكولوجى الفاجع اللذين تقاسى منهما (ليلى) بسبب الهزيمة طبعا . وتجلى القصة الاولى بالخصوص تناقض حالة البطلة مع حالة الاسرة (الام على الاخص) التى لاتفكر الا فى مسالة زواج (ليلى) . يذكر النص أن (ليلى) ذهبت الى الرباط وهناك التقت بالرئيس الكبير الذى اقترح عليها مشروعا ثقافيا (تاسيس جمعية) . ترفض البطلة العرض وتعلن موقفها بجراة أمام المسؤول ومساعديه ، وتدينهم جميعا وتدين بالتالى الموقف الرسمى المتخاذل ، تمجد العلم والفعل ، وتشجب الكلمة والفكر العربى كله . وبعد عودتها

الى فاس ، تقوم بجولة فى المدينة ، فيسترعى انتباهها كسيح منهمك فى كتابة الرسائل ، بدون كلل أو مركب أو تخاذل ، فتعجب بموقفه ، وبقوة عزيمته وتتخذه قدوة ، كما كان قد سبق لها ان اعجبت بالفاضلة برناوى وأبطال بركة القمر ، تقتدى بهؤلاء جميعا لانهم لم ينهزموا ، وتقرر بناء على ذلك اختيارها النهائى : احتضان القضية والعمل على محو الهزيمة عن طريق التوعية وتكوين جيل جديد ـ التدريس ـ والتخلى عن الزوج الموظف ، البورجوازى المهزوم ، مع الدعوة الملحة الى ضرورة تبنى العلم والتكنولوجيا وحمل السلاح ، لاخذ الثار ، وغسل العار .

الوعـــى والمـــوقـــف :

من المظاهر المغلوطة التى يبين عنها تطور مسار البطلة الفكرى عبر المجموعة الاولى والثانية ، ان (ليلـــى) اكتسبت وعيا ونضجا ، وهو وهم يستشف فعلا من وراء قصة (النار والاختيار) . (ليلـــى) كبرت ، ما فى ذلك من شك ، وبسرعة فائقة فى الفترة الفـــاصلة بين المجموعتين ، ولكن هل اصبحت واعية وناضجة عقلا وشعورا ؟ هـــل اكتسبت وعيا صحيحا يتناسب وعمق المأساة ؟ كما تدعى البطلة وتحاول ان تقنعنا ؟ الواقع ان المعالجة بفرعيها : الشكلى والمضمونى ، تكذب وتفند ما تزعمه البطلة . ان المعالجة ، وهى العامل الذى يرتبط لدى الكاتبة ولدى اى كاتب ، بمفهوم القصة وبالرؤية الايديولوجيـــة ، اى بالموقف الطبقى الذى يفسر كل شىء فى النص ، تشير الى عكس مـــا ذهبت اليه البطلة تماما . ان (النار والاختيار) وبقية قصص المجموعة توضح شيئا واحدا هو مدى الغور الذى احدثته المأساة فى نفسية البطلة الشىء الذى قد يبرر فعلا انهيار وتوتر (ليلـــى) ولكنه لا يفسر اطلاقا مسحة الانفعال ، والرصد الساذج والسطحى لمفعول الهزيمة . لقد زلزلت النكسة كيان (ليلـــى) وافقدتها رشدها الى درجة اخذت معها تهذى وتدين كل الناس ، وكل الطبقات . هـــذه الادانـــة المطلقـــة ، العشوائية الجائرة هى مصدر سقوط القصة عند خناثة ، لان فيها اغفالا

وتجاهلا للعناصر الاساسية فى جدلية الاوضاع التى رتبت الهزيمـــة . وبما ان الكاتبة لا تفرق بين الطبقات ولا بين المثقفين ، فان هذا الخلط والتهافت يدفعان الى التساؤل عن مدى صدق وصحة ثورة البطلة ، وعن مصدر وحافز تمردها : أهى ثورة نابعة من قناعة ايديولوجية مستمدة من ارتباط صادق بالقضية ، وبابطالها ، ام انها لاتعدو أن تكون موقفا تكتيكيا ، بورجوازيا ، القصد منه التمويه ، والتزييف ؟

للاجابة عن هذه التساؤلات اجابة موضوعية ودقيقة ، لابـــد من متابعة التجربة الفنية للكاتبة فى آخر حلقة من حلقاتها الثلاث التى نشرت حتـــى الآن .

المثقـــف والايديولوجيا :

فى هذه المجموعة الثالثة (الصورة والصوت) تضيف دائرة انشغالات الكـــاتبة نوعـــا مـــا وتعود المسألة الاجتمـــاعية والسيـــاسية التى بدأ الاهتمام بها فى المجموعة الاولى ، لتحتل الصدارة . واذا كـــان التقسيم الذى تبنيناه فى مقدمة الدراسة عاما ، وواردا بالنسبة لنوعية القضايا والمواضيع المطروحة ، فهو مع ذلك ليس نهائيا ولا حاسما . فالعناية بمشكلة المراة مثلا تكاد تكون هى المحور الاهم فى المجموعات الثلاث ، بينما تظل القضايا الاخرى فرعية وتابعة له . هنا ، فى هذه المجموعة الاخيرة تتخذ القصة القصيرة غالبا شكل حوار تجريدى بـــين شخصين هما دائما : امراة ورجل ، يجمعهما اطار اجتماعى واحد هو بيت الزوجية او المدينة ، بصفة عامة احيانا . اما الموضوع فهو قضـــايـــا الساعة ، بما فيها قضية الواقع المحلى ، وموقف المثقف منهـــا .

وعدا قصة (الورق المقوى) التى تطرح مجددا المعركة القوميـــة (فلسطين) وتنتقد بشدة الانظمة الخائرة التى كرست الهزيمة ، تعكف بقية القصص على مناقشة مشكلات الحاضر من زاوية مثقفين يقفان على طرفى نقيض من حيث الرؤية والانتماء . اغلب قصص هذه المجموعـــة

تعتمد على الرمز ، أو تكتفى بالايحاء ، ولعل قاسمها المشترك الاعظم الذى تلتقى فيه مع قصص المجموعتين السابقين ، هو سيطرة ظاهرة تضخم الوعى ــ وليس تفوق الوعى ، كما يرى الخطيب ، لدى البطلة التى بقيت هى هى ، خلال المجموعات الثلاث ، ولم يطرأ على تفكيرها اى تغيير ، ولم تتطور رؤيتها ــ على ما يبدو ــ عن التحول الاجتماعى الذى أدى الى ارتباط البطلة = الكاتبة بطرف آخر = الرجل ، كانت تعتقد فى البداية انها وجدت فيه مثالها ، او على الاقل صورة لذلك البطل المفقود ، ثم لم تلبث التجربة المعاشة ، والاحتكاك اليومى المستديم أن برهنا لها انها كانت واهمة ، لذلك فهى تتشبث بمبدئها السابق من الرجل وتستمر فى دفاعها عن كيانها ووجودها الانسانى ، وتتخلى عن كل شىء الا عن قضيتها : « وقررت : يجب أن اذهب ، أن احاول البحث عـــن النهار او ان اساهم فى خلقه وسط الليل الكبير » (الليل والنهار) . هذه هى النتيجة التى خرجت بها البطلة عقب نقاش حاد مع الرجل / الزوج ، دار فى مسبح حول فلسطين والواقع المحلى .

وفى (السلب والحتمية) نقرأ انتقاداً آخر للمثقف الذى يبدد حياته وطاقته فى السهر والكأس . وتسير فى هذا المنحى ، قصـــة (المنفى) التى تبرز بجلاء أكبر صراع الرجل والمرأة ، (صراع الزوجين) وادانة البطلة للطرف الآخر الذى لم يستطع ــ كما ترى هى ــ أن يثبت حضوره فى ساحة المعركة . وهنا نلاحظ أن خناثة لا زالت تبحث عن بطلهـــا المفقود « الاول والثانى فيك ، وأين الاخر » ، الثالث الغائب . وتعتبر (البدء والتتمة) رد فعل عنيف يقوم به الرجل ليلقى به فى وجه المرأة متهما اياها ــ ضمنيا ــ بالنفاق الايديولوجى والانتهازية الفكرية ، معلنا لها انها حين تناقش فى مواضيع ثورية ، وتظل فى الوقت ذاته متشبثـــة بالتعادلية ، فما ذلك الا عودة منها فى الاصل ، الى اساسها الطبقـــى البورجوازى المنهار . وهذا الهجوم لا يدعها مكتوفة الايدى ، فهـــى تهب ــ دفاعا عن طبقتها وايديولوجيتها للتعريض بالثوريين المزيفيـــن ، متذرعة بحجة ملموسة وهى انه اضاع فى ليلة واحدة ، ما يكفى لاعالة

أسرة رفيق يوجد وراء القضبان ص 74 ملوحة فى وجهه أن « الايديولوجيا دون تفاصيل تبريره » . والحق ان هذه القصة عبارة عن حوار عادى حاد يتحول الى شجـــار بين الزوجين .

وليست (الحاضر والمستطر) الا حوارا آخر ، مع مثقف آخر ، يكتب القصة القصيرة والرواية ويمارس حياته على طريقة (الهيبي) ، تتخذ منه البطلة الى طرح مسألة التغيير و تدين بجميع المثقفين المتحذلقين المغتبين . وبهذه الطريقة ، وانطلاقا من نفس الموقع ، كتبت حناته (سقوط الانتظار) وهى أشبه بصورة ، لقطة ضمنتها الكاتبة ثورتهـــا الرومانسية المندفعة أما (الوحل و النقيض) فهى تكرار لقصص اخرى مثل (المنفى) و (البدء والتتمة) و (السلب والحتمية) .

واذا كانت القصص المذكورة يغلب عليها الطابع الذاتى ، فهناك قصص اخرى امتازت الى حد ما ، بموضوعيتهـــا وبعدهـــا عن بعض خصوصيات الكاتبة وأشيائها الصغيرة . منها قصة : (لا ، لا يا سيد السادات) و (نهاية موكب) . فى الاولى شجب مباشر لواقع القمع والعسف ، وفى الثانية تعرية لزوايا معتمة وبشعة من حياة الكادحين . فى هذه الاقصوصة يصبح سائق الحمير المعدم ، مناضلا وبطلا فى نظر الكاتبة لانه استطاع أن « يمزق أحابيل الواقع المنحرف من حول قدميه » كل هذا لانه اصبح يملك حميرا . بعد أن كان متسولا وخادما فى الاسواق هذا هو ما يجعل خناثة تتضامن معه قائلة « لا تبتئس ، لن نظل حميرا كثيرا ، سوف نسترد انسانيتنا عندما نهز المركز ليرانا » .

مـــجـــرد آراء :

ان تكتب معناه أن تتخذ موقفا . هذه مقولة لا يختلف حولها اثنان ولعل خناثة كتبت مجموعـاتها الثلاث وبسرعة فائقة لسببين : فنى ، وســـيـــاســـى .

1 ــ مع الاعتراف بأن فن القصة القصيرة كشكل تعبيري مرن ومتطور يبيح قدرا كبيرا نسبيا من الحرية في السرد والتعبير ، على خلاف الشعر مثلا ، والمسرح ، ومع الاعتراف كذلك بانه لا يتسع أكثر لاستيعاب التجربة الصورية ، فهو على الرغم من كونه قد غدا محط تحوير وتجريب في السنين الاخيرة ، لا يقبل أن يتصرف فيه بحرية تتخطى حدوده ، والا فقد فنيته ، ومواصفاته . وهذا يصدق على الكثير من نماذج خناثه التي يمكن أن تكون اقرب الى صور ولقطات انفعالية ، وخواطر ذاتية أو اعترافات ، منها الى قصص قصيرة . فمفهوم القصة القصيرة يرتبط بعامل موضوعي وبمحددات خارجية تحول بينه وبين الاستغراق في الذاتية المنغلقة . وهذا كان لايمكن الدفاع الى النهاية وبدون تحفظ عن نظرية الانواع أو الاجناس الادبية ، فانه لابد مع ذلك من المطالبة بحد أدنى ــ على الاقل ــ من عناصر الفن ، والخصائص النوعية المميزة للشكل التعبيري التي وان لم تكن لها من مزية سوى تفريد مختلف الاشكال ، وحصر نطاق ممارستها ، لكانت كافية لاعطائها القيمة الملائمة والموازية لوظيفتها الشكلية الضرورية . على انه يمكن تعليل ظاهرة الضعف الفني في قصص خناثة بعامل آخر مادي يملك قوة النفاذ ويتوفر على كامل الحجية ، وعليه لا يمكن ــ في نظري ــ أن يبرر التسطيح الذي يطبع معظم قصص المجموعات الثلاث الا بالانتماء الطبقي للبطلة . فموقف المجموعة مرتبط اساسا بتطور الوعي العام داخل قطاعات الفئات والقوى المتواجدة في الساحة الوطنية الشيء الذي يدحض القولة السائدة القائمة على أن المثقفين يشكلون النخبة في المجتمع ، ذلك لان الوعي الذي يسند الموقف الايديولوجي في مجموعات خناثة ليس وعيا متقدما ، كما انه لا يعتبر طليعة بالنسبة لقطاعات شعبية دنيا . والسبب هو صدور الكاتبة عن قناعة ايديولوجية (سياسية ودينية وفكرية) معتدلة ، ومتعادلة : اى اصلاحية وسطية ، يكشف عنها التاريخ السياسي ، والتجارب المتعاقبة التي عرفتها البلاد في عهدي الحماية والاستقلال . وهل نحن في حاجة الى القول بان الكاتبة ، على فرض انها في احسن

الحالات تمثل تيار اليسار فى تنظيم لازال يكرس كل سلبيات البورجوازية رغم محاولات الترميم والانقاذ ، انما تكرس هى بدورها ، بذلك الاختيار نفسه ، واقعا جامدا ، وماضيا عفنا قائما على الاستغلال والاستلاب .

2 — ان الصمت الذى حاولت خناثة أن تمزقه فى أولى أقصوصاتها من مجموعتها الاولى التى هى اول مجموعة قصصية نسائية صدرت فى المغرب ، ليس هو الصمت الحقيقى الذى تطالب خناثة بسقوطه ، وهذا ليس فقط على الصعيد الوطنى ، ولكن على المستوى القومى العربى أيضا : ففى ختام مسرحية (ليسقط الصمت) نقرأ ما يلى :

« مزقوا اللافتة ، ليسقط الصمت ، كلموا السائق ، ان قلبه من قلوبكم ولن يبعده عليكم جدار العربة الثانية ، واعتنقوا الارض وسواعدكم ، وتحرروا من الحركة الجزئية المجمدة ، واندمجوا فى الحركة الكبرى : حركة انسان هذا العصر فى عصره » . أن البطلة هنا نكتفى بالمطالبة بفتح حوار مع المسؤول (النظام) ولا تذهب الى ابعد من ذلك لانه ليس بامكانها موضوعيا ، وبحكم انتمائها المادى أن تفعل . أن موقف التصالح والتسامح هذا هو الذى يتكرر فى احدث قصصها : لم نحصر بقطعة (تهيئة موقف) على قول « سوف نسترد انسانيتنا عندما نهز الحواجز ليسرانا » .

أما على الصعيد الفلسطينى القومى فالكتابة عن وعى أو غيره موقف اليمين البورجوازى فى المقاومة . فهى عندما تعلن عن موت الكلمة ، وتشجب الفكر العربى عموما ، وتدين جميع المثقفين ، لا الجناح البورجوازى الرجعى والاقطاعى العميل ، منهم ، انما تسقط فى انشوطه العقل اليمينى المحتال . على أن هذا الموقف ليس بغريب اذا عرفنا أن الكاتبة لازالت هى ذاتها تعانى من استلاب مقيت ناتج عن ارتباطها بالقوة المفلسة او السائرة فى طريق الافلاس ، باعتبارها طبقة فشلت فى مواصلة قيادة معركة متغيرة متجددة ، وفى احداث الطموحات المطلوبة.

ولا يهمنا هنا أن نستقصى أسباب أفلاس البورجوازية بقدرما يهمنا أن نبين أن اللغة ، والشعارات التى تتحدث بها هذه الطبقة خلال سنوات ماضية ، وبمناسبة أحداث معروفة لم تكن تختلف فى شىء — فى الظاهر — عن أسلوب وبرامج أكثر القوى ثورية وجذرية ، مما يدل ، وهذا شىء تكشف فيما بعد ووعاه الجميع على أنهـا مجرد شعـارات وكلمات جوفاء تستهدف التضليل ، وربح الوقت وكسب معارك هامشية ومؤقتة لتحقيق مصالح آنية وأنانية ، وأعاقة التطور الحقيقى لمعركة اساسيـة .

واذا علمنا أن خناثة كانت دائما منضبطة ومخلصة لاسـاسهـا المادى ، لم نعد فى حاجة الى تقرير أن كتاباتها انما تدخل فى اطار مدروس وجاهز لانقاذ ذلك الاساس من انهيار حتمى ، وافلاس نهائى . أما اهتزاز الشكل ، وضحالة المحتوى فهما وجهان لواقع موضوعى تعيشه طبقة فى حالة احتضار .

البشـيـر الوادنونى

بلبدوى أحمد

الجثة

– 1 –

نهار العين
توارى بين غدر الجند
وعم المدفع الرشاش .
نهار العين
يغيب الان فى رحم البنادق ، ما يزال الله يشحنها بزيت الخروج الممزوج بالصابون
وبين يديك جثتك التى اضناك نتن كان يضنيها .
و ها هى ذى :

« عينيك عينيك طيحوا الزرزور من فوق السور
عينيك عينيك جابوا الهوى من شيشاوة
عينيك عينيك جابوا الغانى و هو ماشى »

صلاة ، فل تمائم أو تعاويذا بها قد عمدوا الجثة .
لماذا جئت تدفنها بباب المشور الآنا ؟
وبين البرلمان وبين مبنى قبة النصر ـ الضريح مقابر الانصار تبحر ، ينسج الاعصار ثاويها ؟

فهل سيلم سلفادور انفاسه ؟ (1)
نيوهض من نفايا الطحالب فى « أبى رقراق » (2)، فى يده بشارته القديمة
لم يجف بها دم النكبة ؟

— 2 —

نهـــــار العــــين
توارى فى نقـــــا الـــرمل .
و يطلع من رميم الجثة الملقاة بين الجسر والقبة
نهار آخر ينساب فى روما فيغسل من نفايات الحريق السور والجدران ،
ينزع عن مداخلها المفاتيح المنيفه
ويمسح عن فوانيس النيـــون لـــظا خطـــايـــاهـــا .
وتبدأ رحلة الدم فى شرايين « اللكوس » (3) فتلقح الانهار والاوراق .
والاحجار ناضرة دم التكوين يعلوها .
تحدث هذه الاجزاء عن أجزائها المنفية الاخرى ، وتهجر كـــل شـــارات
المرور سماتها ، تتلبس الاشياء أسماء جديدة .
يصيـــح المـــــاء بــــا « للـــوكـــوس » :
مخاضك جاء يا « لوكوس » فاستبح المدينة ، فض عنها ختم نكبتها القديمة

— 3 —

يقيم الآن هذا النهر ضفته على حد المناجل . والمناجل كورت ثديا .

---

(1) سلفادور آليندى
(2) نهر أبى رقراق
(3) نهـــر اللوكـــوس

هتاف الدم فى الاوراق أسمعه كما لو كان يهتف فى الوريد ، يغيب ثـم
يعود : « لا تسكن بقلب الندى »

« تحرك بين نبض الندى والمنجل » .
وهانذا أسير و فى يدى تتحول « نيويورك » مطرقة تحولنى الى نخلة ،
هتـــاف الدم فى المرجون يسبقنـــى
او يعصف فى الوريد ، يغيب ثم يعود : « لا تسكن بقلبه الندى »
» تحرك بين نبض الندى والمنجل « .

ارباط فى 76.4.15

بـــالبداوى أحمـــد

محمد محمد الاشعرى

شيىء عن القتل والوردة الظامئة

(شعر)

— 1 —

حدثتني الحديقة يوما
عن مطر قديم لم يعرفه الوطن الا مرة واحده
كان ذلك فجرا
مع أول خيط مر من الشمس
واخترق أزهار اللوز الفضية
المطر كان .. كان .. لم يكن شيئا !
ربما كان عمامة ريفية
ربما كان وشما اطلسيا
ربما كان موالا متوحشا من سهل الشاوية
هل ترى الوردة الحمراء ؟
ذات الغصن الشائك
تلك التى تقتات من وريقاتها ... حتى لا تموت
هى وحدها تلك الوردة .. تعرف ذلك المطر « الحلم »
ابتها الحديقة اليابسة
ابتها الحديقة الحلم

احملينى بقطرة .. عطشى بكر
ومقلتاى بركتا لهيب
احمليني قبل أن أسقط .

— 2 —

افرأى جبهتى المنقوشة
سارية من غرناطة
سجادا من كنف القدس ...
أو سيفا عربيا مفلولا ...
ثم استمعى ...
صوتى هذا الهارب منى
مبحوحا تتآكل أحرفه الحبلى ...
اخترق مئات الجدران وحط على كفيك
مهدورا دمه هاهو يسيح .. ولست نبيا ..
آه لقد قتلونى فى اليوم مئات المرات
وزفوا نبأ ولادتى الموهومة ...
عطشى بكر ...
فاقرأى جبهتى المنقوشة
انى جئت لتوى من مجزرة بالشرق
احمل تاريخى المطروز بألوية الحكام
وابحث عن خيط دم يحملنى لعيون الفقراء

— 3 —

كل فصل السنة الان
تحمل اسما عربيا منفردا : القتل

— 4 —

ايهـا الاخـر الـذى يسكننـى
الاخــر الخـوف .. الاخـر التمـزق
أطـف على السـطـح
وافتـح عينيك الزجاجيـين
هـا هـو الطابـور يمـر ...
سحنـة واحـدة
كتلـة واحـدة
نفـس النتـن
نفس النظـرة البـاردة
على موعد فى البيوت التى يجزع الصمت فى صمتها
يحملـون القوائـم والصـور المستباحـة
وتقاريرهم عـن تنفس كـل نبـى
وكيـف يحرك أصبعـه عند فـورة سخـط
وكيـف يحـرك بؤبـؤ عينـه
وهـل يستطيـع تحمل شهرين فـوق سنـان الدهاليـز
وكيـف يحـب حبيبتـه
أطـف عـلى السـطـح
هـا هـو طابورهـم
آه كـيـف يوجـدك هـذا النتـن
ثـم ابقـى عليـك ...
وانـت ايتهـا الحديقـة صاحبـة الوردة المفردة
امنحينـى خنجـرا
ليـس ككـل الخناجـر ...
آن أن قتـل الاخـر المستميـت
واغـرس قلبـى على غصـن وردتك الظامئـة .

محمد محمـد الاشعرى

المحاضرة

محمد الشعرة

(سينطـــرال) :
المـــوت فوق الاسفلت ،
10 أوت 1970
على المنضـــدة . فـــوق الكـــرســـى . يتبخـــر مخـــى .
وعلى هامش الكـــاس ، فـــوق عـــريشـــة النعنـــاع
تـــخـــور الثـــيـــران
تـــاكـــل نفسهـــا الفيـــران
يـــرقص اللـــون مجـــانـــا ، تتمطـــى السيقـــان
ترتخـــى الاعضـــاء ، يـــدركنـــا المـــمـــات .

* * * * *

ــ اســـكـــت .
ــ خـــذ سيجـــارة الصمـــت . .
دقت الســـاعـــة : سينطرال ، سينطـــرال ، سينطـــرال
المـــوت فـــوق الاسفلـــت
10 أوت . .

* * * * *

فـــى عيـــون الفجـــر
علـــى مـــرآى الحـــاضـــريـــن ،

فــى حــضــرة الــوارث و الــمــوروث
ابــن عبــد اللــه ، والــديــوث . .
دقــت الســاعــة فــى صمــت الميــتين :
سينطــرال ، سينطــرال ، سينطــرال ، سينطــرال .
اشتبــك الــديكــان
صفــق الانــس و الجــان
تــدلــت عنــاقيــد الــرمــان
و على الاسفلت يجهض الانســـان .

*　*　*　*　*

" سيــداتــى ســادتــى :
ركبنــا القطـــار
صعــدنــا الجبــل
نــزلنــا المنحــدر
بصقنــا فــى وجــه الشمس و القمــر
صعــدنــا المنحــدر
خســرنــا اليــانصيــب . "

*　*　*　*　*

دقــت الســاعــة :
سينطــرال ، سينطــرال ، سينطــرال
و فــى ســاحــة المــدينــة
كــانت الام تغتصب الــولاده
و ابتــاعنــى الصيــدلــى حبــات الاسبريــن .

*　*　*　*　*

نــزعــت صمــامــات الامــان

تبخر الكاز من قوارير الكاز
ارتخت الاعضاء
دقت الساعة :
سينطرال ، سينطرال ، سينطرال .

* * * * *

ــ تدلت فى طريقى المشانق
ــ كذب الصادق ، صدق المنافق
غابت فى رمالها (اليمامة)
ــ غرقت فى حبها اليمامة

* * * * *

" ــ سيداتى ، سادتى :
تغزو جحافل الجدران
عناقيد الرمان
. . . . "
و دقت الساعة :
سينطرال ، سينطرال ، سينطرال .

* * * * *

اقول لكم فى الطرقات واقفا
فى مواجهة الالوان منبهرا
تشتعل الاشياء فى ذاكرتى
" طغيان البحر
الموت ــ هكذا ــ على اعتاب الليل و النهار
اسجل لكم ، سيداتى ، سادتى :
عقم الذكر و الانثى . .

أيهمــا اليســـرى ؟
أيهمـــا اليمنـــى ؟ ‘‘

* * * * *

دقـــت الســـاعـــة :
سينطـــرال ، سينطـــرال ، سينطـــرال .

* * * * *

تنتصـــب الصـــوارى
تغـــرق المـــدن الكبيـــرة
يـــزحـــف المـــوت
يـــوقـــف المـــراكـــب الصمـــت
حزينـــة ، طفلتـــى ، عنـــدمـــا تهـــرب الشـــواطـــىء
و تقيئنـــا الأرض .
أســـجـــل لـــكـــم :
‘‘ رأتهـــا عشيـــة تنمـــو
رأيتهـــا تغـــزو
رأيتهـــا تطهـــو
رأيتهـــا تـــأكـــل مـــن بطنهـــا الأولاد
رأيتهـــا تلـــوح : الـــوداع .
وشـــط المـــزار . . ’’

* * * * *

غـــرقـــت فـــى اتعـــابهـــا غـــرنـــاطـــة
و مشيـــت مـــرتـــاحـــا أمضـــغ المـــلـــك !
سينطـــرال ، سينطـــرال ، سينطـــرال . .
و دقـــت الســـاعـــة !؟

ملاحظة اولى :

وجدتني اقف
تصدمني الممرات
أخبط وجهي بالكف
أقول : لا ، للزفت
في مواجهة الممرات
وبدنتني أحيا الموت !

ملاحظة ثانية :

أتمطى بليدا في شوارع غرناطة
كان من حقي أن أتزوج غرناطة
أن يظل وجهي في الرمل مطمورا
الا يقتلني الزفت ..
آه ، كان لا بد أن يموت الفرس
أن يكسر السيف
أن تقتتل الأشياء في ذاكرتي .

ملاحظة ثالثة :

تموت و تحيا في حينها الدنيا
تسقط الاكواب
تظل الحجارة ..
اصير جديدا ، عندما اضم النخلة و الحجارة .

ملاحظة رابعة :

كان لا بد أن آنس بالبيت الاخير

أن أقفل القصيدة
أن يبتلع اليم السفينة .

محمد الشمرة

1 ــ سينطرال : مقهى فى طنجة ــ مجمع لخيط انسانى عالمى .
2 ــ القصيدة كتبت فى أمكنة ثلاثة : طنجة ــ غرناطة ــ فوق السفينة .
3 ــ تاريخ الكتابة ــ فى القصيدة .

مصطفى تكسانى

عندما يصبح القمح جوتا

(أقصوصة)

الرجل النحيف الخفيف ، يلبس صديريا رماديا فوق الجسد العارى ، والسروال المتسخ يصل حتى الركبتين ، والهواء بارد . مسد أنفه وشق طريقه حيث فدانه الوحيد ، يتراءى من بعيد وسط الفدادين الاخرى بنبات أشبه فى طوله ورشاقته بنبات الجوت .

رمشت عينا « يا محمد » فضرب الحشرة الصغيرة بيده اليسرى المرسوم فوقها وشم لأسد بيده سيف منحنى فوق الراس ، وانحدرت الشمس لتغيب وتعيده الى كوخه .

فوق الحصير أمام الزربية مد ساقيه متكئا على مرفق اليد الموشومة و «المطوى» بها ملأ «الشقف» اخذ نفسا طويلا وأفرغ الدخان فى وجه انجاسين وتساءل :

— البقرة اليوم شحال تجيب ؟

فى السوق جلست «زينة البنات» .. كانت الشمس تلمع فى وجهها وعيناها المكحلتان تحدقان فى الشمس ، ثمرات الطماطم الحمراء تلمع .. وقال الرجل النحيل : انها ستكون زوجته وأم أولاده .

لم تنم المراة ، اقسمت بالمصحف الشريف وبسيدى السائح « أن الله غادى يفرجها » وكانت خائفة أن ينفد ما فى راسه ويبيع البقرة ، نـــــادتـــه :

ــ يــا محمـــــد .

كانت لا تريد فزع الاولاد . ضغطت عليه بصدرها الطرى .

ــ آ الــراجــل .

غمر وجه الطفل « علال » عرق بارد .. صرخ الطفــل دقيــق انعظـــــام :

ــ امــيـــا .

ركن الرجل على ركبتيه قال مفزوعا :

ــ ديرى صبعك فى ودنيك .. غوتى .

فى الارض رطوبة الدنيا والشمس تنسحب مخلفة وراءها الظلمة والبرد ، لم الصديرى الى جسده جيدا ، وانحرف يمين الفدان .

تمرغ علال فوق الحصير الاصفر المتآكل يغرز يديــه فى بطنــه ويصرخ .. يتألم يتلوى كقطة تموت .

والام قــائلـــة :

ــ يــا ربــى .. يــا ربــى .

قال للحــاج العـــربــى :

ــ نـــازل للسوق نهار لتلات نبيع البقرة .

ابتسم الحـــاج العـربـى ، رد عليـــه :

ــ يا ولدى يهديك الله .. آش تجيب لك البقرة جوج صوالد ؟!

والحاج المربى سيكسب « صوالدا » ايضا . ناوله السبسى . واخذ الحاج يضحك بصوت عال ، بانت اسنانه الصفراء المكسوره ، وكانت الجلابية « كباردين » تبرق فى الضوء الشحيح ، ملا الحاج المربى بصره فى الفدان وصاح : مثنى العام .

لطمت الام ، وكان البكاء مرا ، سدت الزيف المزركش على راسها بعقده قويه ونام « بوعبيد » منكمشا تحت اللحاف ، ونام علال فى حجر الام .

انفتح باب الزريبة بصعوبة يحف الارض ، دفعته البقرة براسها ، فـاحت رائحــة الــروث .

نامت القطة فى دفء الكانون . والطفل الصغير عقل عمد . وقشر الليمــون فــوق الحصــير ما يــزال .

قال خاله بعد أن شرب الشاى ونفض جلبابه الصوفى :

ــ ريح هاده .. ضربو البرد .. سخنى له شوية فليو

أعطى الخال لامه خمسة دراهم ورقية جديدة . قال بعد أن تخطى عتبــة البـــاب :

ــ سلامى علــى بــا محمـــد .

ادار الطفل وجهه ، اقترب الكلب مقطوع الذنب من الرجل ، تشمم الكلب الارض لف حول العشة المصنوعة من القش . زر بوعبيد عينيه ثم ابتسم . هز الكلب ذنبه والتمعت عيناه فى عينى الصغير علال .

نام علال على ظهره ، جسده النحيف يغوص فى كومة القش ، ربنا فى السماء الواسعة ، والجنة ايضا . والله يحب الصابرين ، ذات ليلة صيفية كان ينام على ظهره ايضا ، فوق فخذ ابيه وكان بوعبيد يلعب فى « الدرسة » وعلال يحدق فى « الخمسة وخمس » على جبين الرضيــع

الذى بكا ثلاثة ايام متصلة دون معرفة « فاطنة » للسبب ولا بامحمد ، فلما أخذوه للفقيه وجد دبوسا مشبوكا بالخرقة وبجلد ظهره .

ظل الرجل يسعل واحمرت عيناه .. سحب نفسا .. وقام يرد باب الزريبة ، كان الاسد على ظهر يده باقدام عديدة والسيف لم يكن حادا.

نبح الكلب مقطوع الذنب فى الخارج . انقبضت الوجوه .. قفز الحاج العربى من أعلى حصانه للارض ، تحسس جيبه فوجد علبة « التدريحة » .. « المعطى » يمتطى حصانه وخفه تلمع .. مد بامحمد يده وابتسم للحاج العربى الذى قال :

— بلا ما تنزل للسوق .. السى المعطى بغى يشرى البقرة .

صوت حوافر الحصانين يقطع صمت الليل . حين يموت الاطفال يدخلون الجنة ، هم ملاك الرحمة .

فرح الصغير علال .. نظف الرجل ما بين اسنانه بعود كبريت .. بصق الدم النازف ، قال : لابد ما نبيع البقرة .

لبس « البلغة » فى قدميه .. ذهب الى الجامع صلى العشاء ، واستغفر الله العظيم ، ولمست شفتاه ظهر يد الفقيه . واشترى الكبريت والشمع عائداً الى الدار .

انفض موسم القطن والشمندر ؛ وبما استبقى من مال الخدمة اشترى عجلة .. وفرح الاطفال .. فى تلك الليلة نامت فى احضانه امراته واحبته أكثر من يوم أن تزوجها .. العجلة الصغيرة لها رموش جميلة ، ولها حوافر دقيقة .. وكانت تتقافز كالجدى ، ثم كبرت وصارت بقرة يحسدها العدو .

ضربت على صدرها :

— ويلى تبيع البقرة ! ؟

لطمت واخذت تبكى ، وكانت تتمخط بين لحظة واخرى .

— الى بعتيها نمشى لدارنا .

كانت تكذب عليه ، وكان يعرف .. الاب مات من سنوات حين كان علال ابن شهرين رضاعة . والدار فى الدوار البعيد ، ضيقة بالاخوات المتزوجات ولا تحمل دجاجه زائدة .

ملكها من شعرها .. لوى رقبتها .. لطمها .. اتسعت عيون الاطفال رعبا .. لكمها فى جنبها فى بطنها ، لو هى حامل لماتت فى يده.

اخذ يسبها بين لكمة واخرى : بنت الكلاب .. مليلة الاصل . صرخت تستغيث بالجيران ، كان الطفلان يصرخان ، جرى الى الباب كالمذعور ، انزل المزلاج مسرعا . تخطى الفاس المرمية ، هوت يده مرات عديدة .. الوشم الاخضر .. رعب شديد ، وكانت للاسد عيون واسعة .

سال الدم ساخنا على وجه الام . لعقته بلسانها .

— غاديا نمشى لدار بويا .. والله مانا قاعداها .

كان يلهث ، والجيران يدقون الباب بعنف .. سمع صوتا من الخارج :

— ألعن الشيطان .. الله يهديك .

جرى بوعبيد فتح الباب .. وفر .. دخل الجيران ، منعوا الاب صرخت الام :

— طلقنى .

قال وهو يلهث :

— واخا .. غادى نخليك تطلبى فى الدواور .

قـــــال جـــــارهـــم :

ــ خون بعقلك يا با محمد ، شكون يربى الدرارى .

الليل بلانهاية وبكاء دائم .. الترعة شريط مهمل على جـانب الفدان و « المطوى » كنز فى يد الرجل النحيل . لافت الحمامة البيضاء على ذكرها .. اقتربت منه بيضتان دافئتان يرقد فوقهما الذكر .

الام لفت ابنها فى حضنها من البرد ، بصق الرجل .. البقرة لها عجل .. لبن ، وزبدة فى العام القـادم .

الظلمة تكسو الزريبة ، الهواء البارد يمرق من كوات « النوالة » وهى جالسة ملفوفة فى الهدوم القديمة ، انفها متورم لادلدمل ، بوعبيد يدلى دميه على صدر ابيه ويتشبث فى شعره الاكرث ، حين انفتح الباب نزل بوعبيد من فوق كتف الاب .. لم تقم الام ، قفزت الحمامة من فوق الارض الى العش الجديد .

سألته الزوجة فى تردد وهمهمة :

ــ غادى تمشى للسوق غدا ؟

تمدد بجوارها احست ان الصديرى الرمادى بارد ، ضمته اليها بدأت الانفاس تصنع دفئا يجرى فى العروق .

مرقت الجياد ترج الهدوء ووقد الحوافر يصنع صوتـا مضطربـا مقلقا . وغمر الدفء الاولاد حين تلاحم الجسدان .

الدار البيضاء ــ مصطفـى تكـانـى

احمـــد المصباحـــى

الحـــى

(اقصـــوصـــة)

امثاله بالمدينة معدودون على رؤوس الاصابع والتى يبلغ مستواها الحضارى درجة لا يرقى اليها الحى نفسه . رغم ذلك فالحى ينفـــرد بخصائص ينعدم وجودها بين تلك الاقلية . يقع فى قلب المدينة . لا يكلف سكانه سوى مسيرة عشرة دقائق . ما من خطر ضجيج المدينة لا يهدا ولا يرحم . عبارة عن مجمعات بنائية مستقلة ، تتواصل فيما بينها عبر ممرات ضيقة ، ضاعف من ضيقها تملق اغصان اشجار حدائق المنازل مـــن الجانبين . نظيفة مرصفة . مثبت على راسها علامات تمنع السيارات والدراجات المرور منها كيف ما كانت اتجاهاتها . منازله احيطت باسوار انيقة . نصفها الاول من حجارة صلدة . غامقة الحمرة حادة النتوءات والثانى من عنصر نباتى ثمرة اعوام من الخبرة والاهتمام الى ان اصبح قادرا على صد تطلع العيون الفضولية . تكثر به حدائق منتشرة هنـــا وهناك . كل مجمع احتضن واحدة لحسابه الخاص . يكسو سطحها عشب دائم الخضرة واليناعة . يزين صدرهـــا أزيد مـــن شجـــرة . اختلفت كما وكيفا من حديقة لحديقة ، وبالاحرى من مجمـــع لاخـــر . باعتراف رواد الحى القلائل يعد شجر حديقة المجمع الاول للداخل الى الحى جنوبا اولاها جمالا وروعة . ثلاث شجيرت اقتربت جذوعها . تلاقت هاماتها . تراها من بعيد يجذبك شكلها وقد بدا على هيئة قبة مجللـــة ببياض وردها الناصع المتلالىء . تنال جميعا ، على قدم المساواة ، من

عناية مستخدمى البلدية يتفقدونها مطلع كل أسبوع . ينزعون أوراقا دب فى عروقها شبح الموت الاصفر . يقتلعون الاعشاب الطفلية . مسك الختام . بعد أعمال جزئية تكميلية طفيفة ، يغرقونها بخراطيم المياه المتدفقة بغزارة . ترفرف فوق أجوائه ألوية السلام والطمأنينة الابديين . تتنفس حياته نظاما دقيقا لا يعتوره خلل . الرجال يغادرونه بتوقيت وكذا النساء . كل بسيارته . أشغال البيت يقوم بها الخدم من الجنسين وعلى اختلاف الاعمار . المرصـــات الملتفة حول المنــازل تبتلــع ورودهــا وأشجارها المثقلة ثمارا ما من شأنه أن يقلق راحة الحى الا من موسيقى هادئة حالمة ابت ان تظل حبيسة الجدران . فى أوقات معينة . تضبطها حافلة متوسطة الحجم ، تضم اليها صغار الحى ، يودع هؤلاء فى روض الاطفال . يجد غير واحد على هامش الحى . لو مررت منه مجتازا زقاقا من أزقائه أو عابرا ممرا من ممراته لسمع لوقع خطواتك صدى هائلا ولتردد فوق فضائه ، اثر همسك كالصراخ المزعج .

فى الصباح يستفيق على حركة خفيفة ، مصدرها خروج اربــاب المنازل الى أعمالهم . أكثر من واحد شد انتباهه جموع التلاميذ استولت على احدى الحدائق . حدقوا بامعان . ملامحهم تصرخ احتجاجا ، منهم من استفسر سائقه عن السبب . هذا الاخير لم تنفعه لباقته العارية فى تلطيف غضب السيد ، مادام يجهل مثله الدافع الذى حدا باولئك لارتكاب تلك الجريمة . تكرر المشهد مساء . تلاميذ اكتسحو بســاط الحديقــة الاخضر . يرتدون ثيابا بسيطة لا تتعدى قميصا وسروالا . موشين برسوم لم تقم وزنا لاى اعتبار . شعور تتطاير خصلاتها الذهبية ، ما تفتا الايدى تمسك بها . تعيدها الى مكانها ، فى حركة تلقائية . يدخنون ، يتحدثون. باختصار كانوا فى غيبة عن العيون الجاحظة تتأملهم بحقد غير خاف . فى الغد قبل موعد دخول التلاميذ بدقائق ، اهتزت جنبات الحى الغارقة فى نوم القيلولة اللذيذ تحت تاثير حركة رهيبة . فى رمشة عين اطلت وجوه مرعوبة تستطلع الخبر فى هلع قاتل . البوليس يجرى بهروات

طويلة غليظة ملساء . يخبط بها على أجسام التلاميذ بشـــراســـة لا هوادة ـــ فيها قسوة من يواجهه عدوا لا سبيل للتراجع أمامه . فتحات الحي سدت بعربات بيضاء مفتوحة الصدر تنتظر الاجهاز على الضحايا. التلاميذ يجرون ولاشيء الا الجرى . لاأحجار يقاومون بها ولا ابواب يأملون ان تفتح في وجوههم كالبرق يخترق تلميذ وبروح عالية حاجز البوليس المضروب حول منافذ الحي . الباقي يسقط صريعا ، تتفجر الدماء في أكثر من جهة في جسمه . انتهت الجولة الاولى . خلفت وراءها سحابة من الكآبة لم يقدر المنتصرون على محوها من صدور السكان ، الذين جعلتهم الحادثة لا يطمئنون الى وجود الثانوية المشؤومة وكأنها خلقت من عدم ، اذ عاهد الحي نفسه أن لا يربط معها علاقة ، مما اضطرها ، من جهتها ، الى أن توليه ظهرها . زراعة أحشائهـــا وســط الشـــارع الفسيح ، الفاصل بين عالمين متناقضين ، الواحد منهمـــا ينكر وجـــود الاخر . والى الثاني ينتمي التلاميذ وبه تمتلىء ابهاء الثانوية . نادرا ما ترى تلميذين يمزفان داخل ممرات الحي الهادئة . اليوم اصرت علـــى اقتحام حرمته واجباره على الاعتراف ولو بحريتها على الاقل . عمـــال البلدية عاكفون على استصلاح الحديقة المحاذية للثانوية . نصب عليها حارس . بادرة لم تعرفها تقاليد الحي العريقة . ذو بذلة قطنية . داكنة الزرقة . بيده عصا يؤرجحها أمام وخلف . يقطع الممـــرات بخطـــوات متئدة . سيارات رابضة في أمكنتها منذ الحادثة . مكدسة بوجوه متحفزة أبدا للاستجابة لادنى اشارة تأمر بالهجوم . اعترى أزقة الحـــي رواج أفقده طابعه الخاص . يذهبون ويجيئون برزانة . أيديهم معقودة الى الوراء . يستقبلون العالم بعين حذرة . حتى اذا وقعت نظرة الواحـــد منهم على منزل مشرع الابواب . آنذاك يستسلم لطائفة من الاحلام ، والجـــا دنيا جديدة أقرب الى الخيال منها الى الواقع . حدائق باهرة على امتداد البصر . زاخرة بشتى النباتات الغريبة ، المقلمة بشكـــل دقيق لا تنبو معه ولا ورقة واحدة . تتغير مغروساتها . تتكيف هندستها وتنسيقها من حديقة لاخرى حسب استراتجيتها من البناء كله . الاعمال

لا تتوقف . تنافس متواصل بينها . لن ترتاح فيم لو ملت الى هذه دون تلك . جميعها تستأثر باعجابك . تتوسطها قصور ذات ابهة وجلال . ان كانت لاتعد ذات شان كبير بالقياس الى الاحياء الاخرى المعدودة على رؤوس الاصابع فانها تنم عن تاريخ ومجد مشرقين .

((أيه على ان أمنع أى تجمع مهما كانت طبيعته أو عدد أفراده . على أن أسترق السمع لا التقاط ما يروج بينهم . تليفونات الحى تحت تصرفى)) نغمة أثيرة لديه يرددها مرارا يذكر بها نفسه ، خصوصا وانه لاحظ خلو الممر الواصل بين الحى والثانوية من التلاميذ ، الذين إحتموا داخل مؤسستهم وعنها يهتفون بشعارات لاتقوى اذناه المتعبتـــان على استساغتها . يتحمل فوق ما تطيقه قوته المستنزفة من قبل رحلة ناهز عمرها الاربعين سنة . لا يتوقف خشية حدوث شىء وراء ظهره . غيرما مرة اندفع مهرولا . مصفر الوجه . متوجسا خطراما . خفتت حدة التوتر بامكانه أن يبتعد عن منطقة عمله قضاء لحاجياته دون أن يحدثه قلبــه بسوء . يتجرأ على خادمة تمر امامه ، حينما تهفو روحه للحديث تبديرا لعزلة قاسية يمانيها طيلة يوم كامل . يبدؤها بالتحية . ينخرطان اثرها فى حديث متشعب يمده شعور الخادمة بحريتها وقد تخطت عتبة العبودية والاستغلال بالحرارة الكافية .

أقبل الربيع . خلص الطبيعة من فصل الشتاء المتجهم . نافخـــا فيها روحا جديدة . تستنشقها فى نسمة منعشة . تسمعها فى شقشقة طيوره مغردة . تتلمسها فى ازدهار الاشجار . لم يعدم الحى نصيبه . استرد شخصيته ماضيه الغابر فى اعتزاز . حدائق فى اوج نضجها . طيور تتنقل من غصن لغصن ، خفيفة رشيقة . محتاطة من ان تعترض سبيل الحياة الوادعة المنسابة بين الممرات الضيقة النظيفة . زمرة من التلاميذ اعتصمت بالجدار الخلفى للثانوية المواجهة للحديقة . افترشت الارض ، مستمرئة دفئها تنفثه فى اجسامها . منكبة على الكراسات تلتهم سطورها المضطربة . أثناء الاستراحة أو العياء تتجه ابصـــارهـــا الى

الحديقة تحكيها بنضارتها الخاتنة . مال الطقس الى الاشتداد . اصبحت تقضي جل وقتها متكئة على الجدار باسطة أرجلها . مفضلة هذا الوضع من الانحشار داخل قاعات مثيرة الامتعاض نقدمها ولوسخها . تتسلل الى الحديقة . لم تنس التمثيل معه لعبة قديمة . فطن اليها . لم يتخذ ازاءها موقفا صارما كما توقعت . التقطت اثناه همســـات لم يرتـــح لوقعها . فاجاها متحلقة حول بعضها البعض بالحديقة . تشبثت بموقفها على غير عادتهـــا وهو ماثل أمامها . رجعت بـــه الذاكرة خطوات الى الوراء . تراءت أمام ناظريه غيوم منذرة بشر مستطير . تقدم نحوهـــا متجاهلا هواجسه . صرخ فيها ((هيا تفرقوا ، ليس هذا مكـــانكم . اسمعوا ما أقـــول)) لم تعراهتماما . قبل أن يحاول ثانية . قرا فى وجوهها غضبا ملتهبا لا يطفىء أواره نداء مبحوح جهد صاحبه لزرع فيه قوة الشباب ((لا شك أنهم عادوا الى غوصاهم . لا تجنب الا المتاعب لنا ولهم)) ولى على عقبيه فى حال يرثى لها . يقدم رجلا ويؤخر اخرى للتوصل الى حل ما . الموقف دقيـــق . لا يريد لمـــن فى مثل سنه أن يتسرع . يجب التروى وتقليب الامر على شتى الاحتمالات . طوق الحى بوحدات من البوليس . فوضى لا بداية ولا نهاية لها . الحدائق أهملت. الممرت لم تعد مثالا للنظافة . الطيور غادرت أعشاشها الى موطن ثانى . السكان تصاعد قلقهم على الثانوية . أصبح غير مرغوب فيهـــا .

استرجع الحى نشاطه المالوف . استضاف حارسا جديدا . اصغر سنا . اشد حماسا للعمل . ارتدى بدلة كاكى متفتحة اللون اصلاحات جارية على قدم وساق بالحديقة السيئة الحظ . احيطت بافريز . عرضه يزيد على نصف متر . يفصله عن الحديقة سياج سلكى . مربع الخطوط. حفظا لها من دوس الاقدام العابثة ، وعرقلة سطو التلاميذ عليها . هؤلاء فى عين المكان . معتمدين الجدار . تفرغوا للمراجعة . الامتحان على الابواب . وحده يطوف بازقة الحى من اقصاها الى اقصاها . لا يدخن . لاتسمح له سنه بالحديث الى الخدم ، ايس خوفا من السكان بقدر ما

يحتاط من العيون التى تراه ولا يراها ((حى هادىء فى غنى عما يحرسه. أولئك لايجدون الوقت لرفع أبصارهم الملتصقة بدفاترهم . كيف ومتى يئوءون باعمال لا اجرؤ على مجرد ترديدها مع نفسى . بلغ الغضب عليهم منتهاه . سمعت اخبارا تحكى بطولاتهم . لكنى قضيت بالقرب منهم مدة طويلة لم ار خلالها شيئا . أين المظاهرات والاشتباكات مع البوليس ؟ ماذا انفعتنى التعليمات التى اوصيت بتنفيذها ؟ فيم نفعنى الحقد العارم صببته ضدهم)) أسئلة تتقاطر عليه متى اقترب منهم ((لابد لهذه النظرات المتوارية من سر تخفية . لن أضيع وقتى هدرا . سأعمل جاهدا للوصول الى الحقيقة . لن تعجزنى الوسائل)) تولاه حماس كبير ملأ فراغا لا يطيقه . كمن سيقوم باكتشاف هائل سيغير مجرى حياته رأسا على عقب . حرص على المرور أمامهم باستمرار . يفتعل مواقف تبرر وقوفه بالقرب منهم . اعطت التجربة نتائج دفعته لمواصلة المغامرة سمعهم يهمسون بكلام استبعد بحدسه أن يكون له علاقة بالدراسة . ضاعف نشاطه . تطور أسلوب العمل . يفد الى الحى قبل الاوقات المقررة ((ايه لو كنت أدخن لهان على غزوهم . لاباس هم الشباب لا يضيقون بالتعرف على الاخر)) يسبقهم بالتحية . يوزع ابتساماته بلا حساب . يغتنم الفرص للاختلاء بواحد مستدرجا اياه الى الموضوع . خطته تسير سيرا حسنا . لم تبق الا لحظات للكشف عن المجهول الذى قطع من أجله أشواطا لا يستهان بها . حلقة الاصدقاء تتسع . الصداقة تنمو باطراد . وثق كل طرف بالاخر . زالت الكلفة . ((أواه يتحدثون فى أمور لا تمت بصلة الى ما يقرؤون يتكلمون فى السياسة . يستهلكون أوقاتهم فى مناقشة مشاكل هم آخر من يشغل باله بها . يحملون على كواهلهم هموما ، معرضين انفسهم للانتقام . يتطلعون الى مسؤوليات ضخمة فى حين انهم مهددون بالطرد أو الرسوب . حدثتنى خاطرى بذلك ولم اقتنع . كنت أجرى لاهثا وراء شبح غير محدود القسمات . الآن اتضحت الحقيقة امامى ماذا جنيت ؟)) اخذته الحيرة من جميع جوانبها . علاقته بالتلاميذ توثقت . صاروا يمثلون قسطا خطيرا من اهتماماته ،

فى وقت كانوا على هامشها ذلل عائق الحوار بالممارسة ثم عليه واجب المفروض تأديته على احسن وجه « الواقع أنهم يمثلون خطرا على البلاد، رغم صغر سنهم . حديثهم قريب الى العقل والقلب معا . يعرفون كيف ينفذون الى أعماق مستمعهم للاستحواذ على مشاعره . لايملك الشخص الا أن يهز رأسه مقتنعا بم يقولون . ايه الدنيا تتغير . لقنت وأنا صغير أن الكبار أوسع معرفة . حبكوا حول خصوبة تجاربهم أمثالا لا يرقى اليها الشك . تغيرت الموازين . غدا الصغار أبعد نظرا حتى من ابائهم » ترك للظروف تتصرف . استأنف عمله المهنى كما لو أن جديدا لم يعرفه .

السنة الدراسية تمضى قدما الى نهايتها المرتقبة . التلاميذ يتناقص عددهم يوميا . حجم اللقاءات يتضاءل . تمنى ان تحدث مفاجأة تطيل عمر السنة الدراسية . ما يزال يشعر بمسيس الحاجة اليهم . شخصا ثانيا فيه . اقبل على الحياة . مسح عن عينيه غشاوة ضببت رؤيته « ما قيمة عملى هنا ؟ أحياء عديدة لاتتوفر على الماء الصالح للشرب . درب السلطان . درب غلف درب ...... هناك يشترون الماء فى صفائح الزنك السوداء . انى لهم من حديقة جميلة يقف عند راسها حارس . تصرف عليها ميزانية خاصة » يتأمل الاسوار المحيطة بالمنازل . يود اختراقها بعينيه للاطلاع على ما يقع وراءها . جاء اليوم الموعود . كان ينتظره بفزع كبير . اغلقت الثانوية أبوابها دون التلاميذ . يجتر مرارة الفراق رضخ للامر الواقع بعد ان خاب امله فى نقله الى حديقة أخرى . استدرجته الحياة الى تيارها العارم . مقهى الاصدقاء بالحى الذى يقيم به . حول المائدة يلتقى بالزملاء . يتحدثون عن مشاغل الحياة الكثيرة والمخيفة . بعفوية صادقة يبوح لهم بم تعلمه من التلاميذ . قد ينجح فى عرض معلوماته . قد يفشل فى الاجابة عن سؤال زميل . فى جميع الاحوال اعجبوا بالطعم الجديد امدهم به صديقهم . ينتظرون بلهفة موعد لقائهم . استشعر بموقعه عندهم . يلاحق الاخبار . يقرا جريدة تقع

بين يديه . يسال من يتوسم فيه املا . يفكر فى صياغة جواب لم يهتد اليه البارحة . ذكريات التلاميذ بدأت تضمحل وتتلاشى . حقده على الحى اصـــابـــه فتـــور .

فصل الصيف فى عنفوانه . منـــازل الحى مهجورة . أصحـــابهـــا متفرقون بين المصطافات المحلية والعالمة . تاركين الفرصـــة كـــاملـــة للثانوية تعد للحى هجمتها القاضية لا للاعتراف بجيرتها ولكن . . . . ..

الدار البيضـاء ــ احمد المصباحى

محمد عبد النبــاوى

الليمون

أقصـــــوصــة

ــ « تفضلوا .. ليمون بلادنا .. حلو .. لذيــذ .. اللـــه .. الله .. ». كان يضحك ملء فيه المديم الاضراس .. بائع ليمون متجول فى الاربعين او يزيد قليلا .. كــان يضحك بلا تكلف ، يبتسم فى وجه كل زبون ،، بل فى وجه كل مــار .. وفى ابتســـامته دعوة تقــول : « ليمــون بلادنــا حلــو ولذيذ !! » .. قسم الليمونة اربعة أشطر ، قدم احدها الى زبون ، ولم يفتأ ينــادى : « ليمــون بلادنــا ،، حلــو مثل بلادنـــا .. كــل .. تلــذذ .. تمتــع .. الحلاوة بالمجسان .. ثمانية ريالات للكيلــو .. »

خفت الصوت فجأة ثــم مــات ،، كــان (المخزنى) يتقدم نحــو عربة الليمــون بحزم رجل القــانون الصــارم . سكت صوت البائع ، وتسللت يده الى محفظته المرتقة .. فتح المخزنى فــاه ليصدر حكمــه على العربة وصــاحبهــا ،، وسكت بدوره .. ظل الحكم معلقــا بين شفتيه الغليظتين ،، ثم وأدته « القطعــة » التى انتقلت بسرعة مــن محفظة البــائع الى يد المخزنى .. تزحزح رجل « القــانون » بثقل .. أتبعه البــائع الكهل نظرات تــائهة ، زائغة ،، ظلت تتجمع حتى ماتت

على حذائه الاسود الفايظ . انتهزها ماسح الاحذية الطفـــل فرصـــة ســـانحة ليوقف سيل لعـــابه بليمون بلادنـــا .. فقفز بخفة نحو المرية وعـــاد بليمونتين .. أختفى خلف الشجـــرة يفترسهـــا ،، أحـــاطتـــه جمـــاعة من أترابه : « أر شوية .. أعقل فيهـــا .. وانا .. وانا ، وانـــا .. »

عـــاد الرجل ببصره الى عربته .. تفحص الليمونـــات مليـــا ، ثم هتف بأسف : « الليمون ستة ريـــالات للكيلو .. » . مر الزبنـــاء على المرية مر الكرام ... وربمـــا التفت اليه بين الحـــين والحـــين احدهم ليقول : « أربعة ريـــالات بارك ! لا » .

نصف ساعة مرت ، ومع ذلك لا يبدو على المرية انهـــا نقصت كثيرا او قليلا .. عـــاد الحمـــاس الى البـــائع . وعـــادت لصوتـــه اليانس قوته . « الحلاوة بالمجان .. ليمون بلادنـــا حلو كالسكر !!..» . كـــانت الضحكة قد عـــادت بأكملهـــا الى الوجـــه المتجمـــد .. وكانت الدعوة الكامنة بين التجاعيـــد والتي تقـــول : اسرعوا يـــا الخوتـــي في الشقـــاء ، ســـارعوا يـــا اشقـــائي في التعـــاسة الى تخليصي من هذا الليمـــون النحس قبل ان يصبح ملكـــا للمخزن .. بالله أرجوكم ، لا تحليلوا عذابي .!!». كـــانت الدعوة قد استفـــاقت بين تجـــاعيده العميقة ، مصحوبة بـــابتســـامة كسيرة تطبعهـــا خيبة الامل . . . حـــين . .

حين حم الموقف ،، تصلب المشهد وتوتر الجو .. كـــان المخزني الاخر يتجه صوب المرية في تصميم « الحـــاكم الحـــازم » الـــذي لا تأخذه في الحق لومة لائم .. تكرر المشهد وان بدا أن القطعة التي أخرج البـــائع هذه المرة كانت اقل من التي نـــال المخزني السابـــق ...
يتنابعـــوا ، واحدا تلـــو الاخر ، والرجل يعطي ، يعطي . . كانـــوا لا يقتنعون بما كـــان يعطيهم ، وكـــان بعضهم يأخذ ليمونة أو اكثر ...

كــان البائــع ما يزال يهتف عارضــا ليمونـــه ، والدعــوة الخائبــه التى ترقد بين تجاعيد وجهه العميقة نزداد اشتعالا والحاحا . .

وكشفت الخيبة عن وجهها .. كان يقبل بحزم .. لتقدمه بطنه المنتفخ .. لم يكن عابسا كمن سبقوه ، وانما كــان واثقــا من فوزه ، ولذلك كان يبتسم ،، لم يكن كالاخرين يصطنع الغضب . ولكنه كــان يصطنع السخريه ... راه البــائع فاسرع يدخل يده فى جوف المحفظة العتيقه .. لم يجد قرشا .. تلمس فى زوايــا المحفظه الكثيــرة . . اصطدمت يده بشىء رخو ، يبدو عليه اثر القدم .. ورقة نقديه من .. خمسة .. أو عشره دراهم .. لابد أن تكون ورقة نقديه . .

كانت يده مــا تزال تقبض على « الورقــة » حين أســرع الى الدكان المجاور لعربته ليصرف « الورقة » ، فيطعم الكلب الجائع لعله يكون الاخير .. وقف فى باب الدكان ، طلب من البقال الصرف ، أخرج « ورقته النقدية » . وضعها على المسطبة ، فاذا هى قيمة بائيه .. أسرع يجمعها قبل أن يبصره الرجل ، ودار على عقبيه وهو يقــول : « بلاش .. بلاش الصرف ».. عاد الى عربته ، ابتســم للمخزنــى ابتسامة بلهــاء جــامدة ، لاتحمل غير معنى الخيبة والفشل .. حرك المخزنى فكيه فى الهواء .. هو أيضا يتقــن دوره .. نفس الحركــة الكوميدية المعادة .. طالت الحركة أكثر من اللازم .. حملق البــائع الفاشل فى « رجل القانون » بعينين ضارعتين ، فاستأنف الرجل حركة فكيه التى أوقف ــ بحكم عاده التمثيل ــ فى نصف الطريق ، ونطــق ، أصدر حكمه على العربة والليمون والبائع .. و .. أطفال البائع .. سرب جائع من الاطفال ينتظرون فى المســاء عودة هــذا الرجــل بــ « مأكولات الف ليلة .. ومشروبات العمر » : بلقمة الخبز .. تعالى صراخ الاطفال .. طال بكاؤهم لقد ضاعت اللقمة السحرية مع كلمات المخزنى : ــ « سق العربة ، وتقدم أمامى !! » .

مصير معروف .. سيفرغ الليمون فى الخيرية ، وتحتجز العربة

ى (الفندق) حتى يؤدى عنها .. وسيعود الرجل فى المساء الى اطفاله الجياع بالمأكولات السحريـــه .. بالفـــواكه اللذيـــذه .. (البسطيله والمحمرة) .. وكل ما يسيل اللعاب .. سيعود اليهم .. « بلاشىء » !!

حاول المسكين ان يتدارك الامر .. اختار مجموعة من الليمون الجيد .. قدمها للرجل ابتسامة .. تطلب عشـــرات المرات .. « ســر امامى .. انــا لا اقبل رشوة .. انت مخالف للقانون .. جـــزاؤك معروف !! »

حاول الرجل ان يعتذر ويستعطف ،، ولكن . . .

ساق عربته بتثاقل وبطء .. سار امام « ممثل القانون » . .

كانت مجموعة من الشبان مقبلة فى عرض الطريق .. يحملون كتبا دلت على انهم تلاميذ .. كانوا يضحكون باصوات مرتفعة .. وفجاة شلت اصواتهم وزعيقهم ، وهم يقبلون على العربة المحجوزة .. تقدم احدهم خطوه — كان نحيلا ، طويلا ، صلب النظرات — وتكلم . نظر اليه البائع .. ثم ترك العربة .. لقد قال التلميذ : « ينزع منك رزق اطفالك ، وتسوق له العربة .. اتركها له ليسوقها بنفسه !! ».

لم يكد البائع يخطو خطوة حتى عالجه المخزنى بلطمة قويه . . التفت اليـــه يستعطف بنظرة باكيـــة :

— لا تخف .. رد له تحيته .. اضربه !! » ، قالها التلميذ الغث النحيل المستسلم بحمـــاسة . . .

توالت ضربات المخزنى الجائرة تتساقط قوية عنيفة على الرجل المسكين .. عاد التلميذ الغث النحيل نداءه الحماسى .. استبدل البائع المظلوم خطته الدفاعية بخطة هجومية .. كثـــر اللغط والضجيج .. تهافتت الكلاب تتقاطر من كل حدب وصوب .. انهالت الضربات علـــى البائع المقاوم ، ثم على التلميذ الذى التحق به ليدافعا معا على الحق

المصهور .. ظلت الكلاب الجائعة تتقاطر على حلبة الغبن والظلم حيث يذبح الضحايا فى وضح النهار وعز الظهيرة .. كان التلميذ النحيل مدد تمدد على الارض خائر القوى ، وكان ابائع التعس ايضا طريحا ، منهوكا .. وحولهما ضرب حصار من الكلاب التى تمثل المحكمه الغريبة . . .

تقدم المخزنى الاصلع ذو البطن المنتفخ ، ركل البائع وهو يقول : « سأروضك على عدم مناقشة الامور ،، سأؤدبك قبل أن تهذبك المحكمة ! » . وضع حذاءه الغليظ على رقبة التلميذ وقال : « وأنت يا كلب ! .. علمناك أن تكتب اسمك فأرهقتنا ،، أصبحت لنا غصة .. سأعلمك السكوت ، وعدم التدخل فيما لا يعنيك !! »

تطلع التلميذ الى الجمع الذى تحلق حول المشهد .. لم يجد اثرا لاصدقائه .. لقد مضوا حين اشتدت المعركة .. ـ حين نخر السدود الليمون ،، حين ثار الليمون ـ خمدت النظرة المتحمسة فى عينى التلميذ الغيور .. اغمض عينيه ثم فتحها وهتف بصوت مخنوق : « واحسرتاه .. « غريب الدار فى وطنى .. غريب الدار * » ، مظلوم تحت سماء العدل .. مظلوم !! » .

(* من قصيدة لمحمود درويش)

محمد البرينى

روح عامر

(اقصــوصــة)

هناك حركة غير عادية كانت طيلة هذا الصابح الرمادي ، صباح العيد قد خلقت جوا خاصا فى فيلا السى التهامى الفخمه ، حيث كانت الشياه التى جيء بها من الضيعه تثغو قلقه فى المارب . وكـــانت لهـــا قرون جميلة طويلة ومستديرة و كانت محكمة الوثاق . وكـــان مـــن الضرورى أن لايترك لها المجال للفرار . اذ أن الحارس تلقى أوامـــر صارمة لذلك فأكباش العيد هذه تكون دائما على أهبة للهرب .

فى السنة الماضية مثلا كانت عدة أكباش قد اختفت ، بعضها كسر الباب وبعضها الاخر قطع الحبل الذى كان يربطه وهناك اكباش أخرى قفزت من اعلى جدار الحديقة .

واستنتج الجدود من كل ذلك أن لعنة ما ستنزل بالعالم .

الاطفال كانوا يلغطون ويتنافرون فى صالة الحمام و هنـــاك ثياب جديدة كانت تنتظرهم وكذلك بعض النقود . بينمـــا الام ترجوهـــم أن يعجلوا . اذ كان عليهم أن يحضروا مراسم « الاضحية » حيث سيشحذ

1) — من مجموعة (اغلال الماضى) التى صدرت مؤخرا عن دار النشر المغربية .

مذيته الطويلة الملتمعة ويذبح الاكباش : الواحد تلو الاخر فيسيل كثير من الدم وتتجمد عيون الحيوانات المسجاه وتصبح تنديده اللمعات .

وسوف تتبدى امام انظارهم صورة هى صورة ابراهيم وولده . والمذيه والملات . والكبش والجنه ... « ولــو لـم نكن هنـالك اكباش (... » و ردد جمال : لو لم نكن هنالك اكباش (... » واختفى اخوته بالنصر اليه .

وكان السى التهامي منشغلا وحده فى بيته بعدما انهى صلاته و تردد امام الخزانه حيث كانت جلابيبه وسلاهيمه مرصوفة .

كان الاختيار صعبا بالنسبة اليه ، لذلك استدعى زوجته لمساعدته بينما دوائر « الشفنج » المجمره والمغموسه فى العسل الصافى والحلوى الخارجه للتو من الفرن ، والشاى المنعنع تضـــوع روائحهـــا فى البيت فتنفتح الشهية .

الاكباش كانت ما تزال اخذة فى الثغاء ولم يكن السى التهامى ليخفى حبوره : هذه المرة لم يتمكن اى كبش من الفرار وسوف يعطى بعد حين شفنجة للحارس جزاء له على حراسته .

هاتوا لى الكبش الاول .

وقلب الحيوان على الارض قلبا بينما خادمان يمسكان من قوائمه ورأسه . وتناول السى التهامى مذيته الساطعة ولوح بها فى الفضـــاء وقلبها وأدار فيها النظر ليتأكد من مدى شحذها ثم تحسس عنق الكبش الذى كان يحدج عرس السى التهامى ودعى الى الله ... ثم انهمر الدم وتراجع السى التهامى بينما الحرس يطلقون الكبش الذى أخذ يشخـــر ويتخبط ملطخا الخدم ببقع الدم . فى حين ان الاطفال كانوا يتصايحون : « الدم . الدم » . اما نوال فقد هربت واخفت وجهها بينما اختفى جمال فى المرحاض حيث اصيب بالغثيان وأخذ يتقيأ . الكبش كان مايزال يتمرغ

والدم يراق الى ان كون بحيرة كبيرة تحيط بجسد الحيوان الذى كان قد غالب الموت فى معركة قصوى ، وكان جواد يبكى : « لماذا فعلت له هكذا يـــا بـــابـــا »

وفجأة وقف الكبش منتصبا ! ! وقوم راسه واصبحت عينـــاه حمراوين جاحظتين .

وارتكزنا على السى التهامى والدم ما يزال يفور بينما تطلـــق احدى الخدم العنان لزغردة رنانة فضحك السى التهامى (وقف الكبش ! انها علامة خير . وامتقع وجه نوال خوفا فشخر الكبش وبصق الدم علـــى ثياب السى التهامى البيضاء ثم ... قفز الى باب الحديقة واخترقه واخذ يجرى فى الشارع المقفر وتستمر الخدم فى أماكنهم لايحيرون حراكا .

و صرخ السى التهامى : هاتوا لى الكبش الثانى !! »

فذبح وهرب

هاتـــوا لـــى الثالث

فذبح وهرب وهكذا دواليـــك .

و عانى الخدم كثيرا من اجل القبض على الاكباش الهاربة لكـــن عبثا حاولوا بل لم يفلحوا الا فى الحصول على نفثـــات من الدم تلطـــخ وجـــوهـــهم .

ولم تعد الخادمة تزغرد اما زوجة السى التهامى فكانت قد التجأت الى غرفتها واخذت تحصى خطاياها معتقدة بأن لعنة ستصيبهم .

أما السى التهامى فقد ظن شيئـــا آخـــر و الغيظ قد اخـــذ منـــه مأخذا عظيما . فالمسؤولون عن كل المآسى التى لحقته هم « السحرة » « فالساحر » هو الاسم الذى كان السى التهامى وجيرانه فى حى السعادة قد اعطوه لرجل ذائع الصيت ومقدس لدى سكان مدن القصدير . وكان

اسمه : عــامــر . فروح عامر كانت فى ملك عبد الكريم الذى كان هو نفسه ورثها من أجداده . وهذه الروح كانت قد انتقلت الى جســد آخر منذ عشرات السنين واحتلت جسد ولد البركة الذى حولها بدوره الى عــامر .

السى التهامى كان اذن متيقنا بأن عامر هو المسؤول عن ثــورة الاكباش الجديدة هذه .

ومنذ زمن بعيد كان السى التهامى وجيرانه فى حى السعادة قــد قرروا وضع حد لتلاعب هذا الشخص الذى لم يكتــف بتدويخ سكــان المدينة (حيث انه كان قد نجح فى اقناع الناس البسطاء بأن السى التهامى لم يقدم الحقيقة الا اينا طبيعيا للروميين) بل تجرأ الان على تسليط سحره على الاكباش . لكن كيف التخلص من « الساحر » هاهنا كانت المشكلة فجميع الطرق المتبعة لحد الساعة لم تعط أية نتيجة .

وهكذا فكر السى التهامى فى خطة جديدة و فعالة .

وعندما وصل السى التهامى الى هذا الحد من التفكير وجدان جميع خدمه قد اختفوا ولم يبق منهم بالبيت اى احد . والاطفال اختبأوا فــى غرفهم وقد رفضوا الخروج منها رغم التهديدات التى كان يتوعدهم بها الاب .

وفتح الحاج التهامى احد جيران السى التهامى باب منزله وكــان لباسه الابيض ملطخا بالدم . فحيا السى التهامى وطلب اليه أن يمــده ببعض من خدمه غير ان الحاج التهامى رفع يديه الى السماء ثم انزلهما على فخذيه وهو يجيب : « لقد ذهبوا كلهم بعد هرب الاكباش ! ! » فزمجر السى التهامى :

ــ هــه !! حتــى أنتــم

وبعد حديث قصير قررا القيام بجولة عنــد الجــيران الاخريــن

وفى وضعية كهذه كانت كل اشكال اللياقة والاصول غير مجدية . حيث كان لابد من العمل السريع والاعتماد على النفس ذلك هو الاهم .

ودق الحاج التهامى واللسى التهامى على باب دار المعلم التهامى فخرج ملطخا بالدم وكانت الاكباش قد هربت وكذلك الخدم فاذا بحى السعادة كله فى نفس الحالة .

كان حى السعادة المركب من الفيلات قابعا على قمة هضبة مخضرة تشرف على المدينة وكان تحفة معمارية رائعة حيث كان الشكل الحديث يعانق الشكل التقليدى .

وخرج جميع سكانه من اللسى التهامى الى الحاج المعلم ، الى غيرهم .. خرجوا من فيلاتهم والبستهم ملطخة بالدماء ووجوههم منقبضة من شدة الغيظ .

« لقد عيل الصبر ، فربما يكون الساحر ما يزال دائما على قيد الحياة . على كل حال يجب أن تتخلص المدينة باى ثمن من هذا الشخص » والا ... وظلت هذه الفكرة معلقة . .

غير أن عبور الاكباش المذبوحة وانسكابها على حى السعادة أوقف الحديث حيث أن الضجيج اخذ يرتفع فى كل زنقة وشارع وأخذت الخطوط الحمرء تلطخ الجدران وتسقى الارض بالدم فى كل مكان . وحتى النور الذى كانت الشمس تدفعه كان أحمر فاصبحت المرئيات كلها حمراء السماء ، آلافق الاشجار الاشخاص ، الاشياء واصبحت الحال وكان أمواج الوان حمراء قانية ترتفع من الارض وتتجه فى حركة متسقة ودائرية نحو السماء وكانت النساء الخارجات فى القفاطين الفخمة للغاية يتأرجحن وكأنهن فى الموازين ، وتدافع نحيبهن وضاع فى الضجة العامة وسقطت فتاة من احدى النوافذ وانسحقت على الرصيف ولم يابه بها اى أحد .

بعد

واجتمعت الاكباش وكونت قطيعا موحدا واتجهت فى نفس الاتجاه وكان صدى جريها يتردد على الواجهات ويرعشهـــا .

وابتدات مطـــاردة الاكبـــاش

واذا بالسى التهامى وجيرانه فى حى السعادة يلاحقون الحيوانات الهاربة لاهثين ولم تكن هذه الشخصيات الهامة قد اعتادت الجرى بل لم تكد لتنتقل الا بواسطة سيارات فخمة

ولم يكن احد ليتكلم كل ما هنالك أن العيون كانت جاحظة وملتصقة بالقطيع وهو يجرى ويرش الطريق بالدماء .

ودخلت الاكباش المدينة الخـــالية حيث كان صمت كصمت الاموات يسيطر على الازقة المقفرة وكانت الابواب والنوافذ موصدة .. ولا حراك. وتساءل السى التهامي واصدقاؤه التهاميون الاخرون : « يا للغرابة !! أين يا ترى يكون جميع هؤلاء الخدم قد اختفوا ؟ !!

و فجاة ظهرت فى البعيد كتلة بشرية والتفت حول دار تعرف عليها الجميع » و ردد احدهم بصوت خافت : « لنرجع الى حى السعادة قبل أن يروننـــا »

اما الاكباش فقد دخلت الدار

كـــان عـــامر واقفـــا وسط ســـاحة فسيحة وسيف مغروس فى قلبه ولم تكن هنالك اية قطرة من الدم تسيل من جسده بينمـــا بسمة خفيفة ظلت متجمدة على شفتيه البارزتين وكانت عينـــاه المتفخـــان بكل سعتهما تبدوان وكانهما على اهبة للوثب من محجريهما فى حين ان النظرة كانت ما تزال حية صارمة ثابتة ومركزة على الجماهير . امـــا قبضتا يديه فكانتا منغلقتين . وتوقفت الاكباش عن القـــاء الدم مـــن افواهها و احاطت بعامر ونفخت فى جسمه وانتظرت لحظة ثم نفخت مرة اخرى فى فمه وانتظرت ... ثم فرت أمام الجماهير وتهالكت جميعها فى

نفس الوقت ولم تساقط ولو قطرة من اجدائها المجتمعة .

وانساب من جسد عامر رش نورانى وارتقى صعدا الى السماء ثم تحول الى كائن بشرى : عامر . واخذ يحوم حول الجماهير التى اخذت تردد وتصيح : « روح عامر . روح عامر »

و كثر الصراع حولها .

وكان الكل يريد الاحتفاظ بروح عامر

فهل تراهم سيفلحون ؟ ؟

ترجمة : صبرى احمد

محمد ابـــراهيم بـــوعلـــو

« الجيران » ...

(اقصوصة)

صاحت الدجــاجة كمـــادتها كلمـــا بـــاضت .. وارتفع صيـــاح الديك يشـــاطرهـــا صيـــاحهـــا .. وسمع الطفل الصغير هذا النقيق المتواصل ، فأخذ يركض وهو يردد : « بيضة .. بيضتي .. بيضة .. بيضتي .. » وسمعته الجارة صـــاحبة الدجاجة ، واشرابت بعنقهـــا تنظر الى بيت الجيران ، وهي تهدد الطفل الصغير : « انت اذن الذي يسرق البيض .. ؟ »

وسمعت أم الطفل هذه التهديدات فالتحقت بالجارة في ســـاحة البيت الذي كانت تمتلي جداره ، وقالت لها : « عيب يـــا (خدوج) .. كيف يمكن لطفل صغير أن يصعد الى السطح ، ويسرق البيض .. »

— ولكن اذا لم يكن هو فمن يكون .. ؟ !

— لست ادري .. انما ثقي أن ابنـــي لا يفعل ذلك ، وليس في استطاعته ان يصعد الى السطح

ولكن (خدوج) بدل ان تتراجع عن اتهاماتها ازدادت هيـــاجـــا ، وانطلقت تكيل (التايكة) السباب من نوع فاحش جدا ، وادخلت فيه

كل اسبـــاب الخصومات المســابقة ، كمـــا حشــرت فيه الوالدين ، والصالحين ، واهل الحى ... ولم تكتف بذلك بل صاحت فى زوجها :

ـــ المعطى .. آ المعطى .. الا تسمع كل هذا الخصام .. ؟ ! انك لا تتدخل باى شيء ، وكان البيت الذى يسرق ليس بيتك ..

تعال قل كلمة او كلمتين لهؤلاء اللصوص ..

وتدخل (المعطى) بصوته المبحوح ، واغلظ فى القول وافحش ، بل لم يكتف بكلمة او كلمتين ، بل انتقل يهدد بالسجن هؤلاء الجيران اللصوص ، فهو ما دام يشتغل عند اناس اكابر ، ففى استطاعته أن يستغل نفوذهم ويلقى بهؤلاء فى السجن ..

وقــر فى اذهان الجيران الذين تتبعوا هذا الشجار ان (المعطى) فى استطاعته ان ينفذ تهديده ، وان النهاية ولا شك ، ستكون كسابقاتها فى مركز الشرطة ..

و ارتعشت (التــايكة) وهى تستمع الى هذا ((الحكم)) الذى صدر فى حقهم من طرف (المعطى) ، واقتربت من زوجها (الجيلالى) الذى كان قد مسك راسه بين يديه يفكر فى هذه المصيبة التى نزلت بهم بسبب كلمات فـــاه بها ابنه الصغير ، وقالت (التايكة) :

ـــ قل له ليلعن الشيطان .. وليعد الى رشده .. ان هذا لا يليق بممـــاملة الجيران ..

واجـــابهـــا (الجيلالى) برزانة ، ((ان كلاما مثل هذا لا يمكن ان يقال الا للعقلاء ، اما هؤلاء المجانين ، فعلينا ان نبحث عن اسلوب آخر نجعلهم يقفون به عند حدهم))

و غادر (الجيلالى) البيت ، وما ان تاكد ((المعطى)) بان جاره كان يسمع كل تلك التهديدات ، ولم يحرك ساكنا ، حتى افاض فـــى القول الفاحش ، لاعنا شاتما ، مشنفا بذلك سمعه الى ان ابتعد ..

* * *

كثيرون هم الذين حيوه هذا الصباح ، ولكنه لم يرد على تحياتهم ، فلقد كان منشغلا عنهم ببضاعته يخرجها الى باب الدكـــان ، ويرتبهـــا بطريقة آلية ، وينزع منها الفاسده والذابله ، ويلقى بها داخل الدكان بعصبيـــة ..

و كثيرون هم الذين انصرفوا عنه لما اجابهم باقتضاب عن الاسئلة التى سألوه عنهـــا ، وهم يحملون ان (الجيلالى) صادف فى صباحه هذا مـــا عكـــر خـــاطره . . .

وانتهى اخيرا من عرض البضاعة ، وجلس فوق صندوق خلف الميزان ، باسطـــا راحتيه لخديه ، مركزا نظراته فى نقطة مـــا مـــن ارض الشارع ، وكأنه يجهد هذه الرأس الكبيرة لتسعفه بحل لمشكلته .. ولم يلتفت الى المارة رغم انهم كانوا يطأون باقدامهم النقطة التى كـــان يركز فيها بصره من غير ان يراها .. ففى داخله كان يبحث عن حل ...

واقترب منه احدهم ، وطلب منه كيلو تفاح ، وكيلو موز ، وكيلو مزاح ، واوصاه بان يختار منها احسن ما عنده فهو سيقدمهـــا لمريض بالمستشفى .. وفورا أجابه على طريقته الخاصة ، وبسرعه بديهته : ((وهل هو مريض حقا هذا الذى فى استطـــاعته ان يـــأكل كل هذه الفواكه ؟ ! . .)). ولكنه سرعان ما تذكر الذى يشغل باله ، فلم يعر صاحبه انتباها ، رغم انه أكد له بأن تلك الفواكه انما هى فعلا لمريض سيزوره فى هذا الصباح . .

وعندما قرضه الزبون ماله وانصرف جلس (الجيلالى) خلف الميزان يحث دماغه فى ايجاد حل لمشكلته ، وهو يقول فى نفسه : ((لابد وان اجد الحل قبل ان اعود .. اذ لا يمكننى ان ادخل البيت قبل ان احمل معى لذلك (الغول) مـــا يسد بـــه فمه النجس ..))

وانتقلت عيناه ، هذه ، المرة ، الى كفتى الميزان تتابع صعودهما و نزولهما ، وكأنه يضع افكاره عليهما وما لبث ان انتقل يفكر فى هذا

الميزان الذى لم يعرف هذا الاستقرار الا بعد حين من الدهر قضــاه (الجيلالى) متنقلا من مكتب الى مكتب ، ومن (الكوميسارية) الى (الخيرية) ، عندما كان يتجر فى بضاعته تلك على عربته المتنقلة ، التى كانت لاتعرف حالة من الاستقرار تسمح له بالبيع المنتظــم كمــا يحصل له الآن .. فــ « المردة » تتبعه فى كل مرة تبرز فيها عربته بانواع من الفواكه الفصلية ، وتضيع تلك البضاعة ، ويضيع معهــا « الميــزان » ..

وهكذا فالمصائب لم تفارقه ، بل انها انتقلت معه من البادية .. يوم ان سلبوه أرض الوالدين والاجداد ، ودبروا له مكيدة ، واخرجوه بها من حقله ، ومن يومها وهو يتعلق بالمحاكم يبحث فيها عن حقه الذى ما يزال بين الاوراق ... ولم ييأس ، فمع انهم اغلقوا الباب فى وجهه يصدونه عن حقه ، فضل أن يطوى صفحة المــاضى الى حين ، ويبدأ صفحة جديدة .. وهو وان ابعدوه عن فلاحة الارض ، فانه لن ينفصل بهذه الارض عن طريق الاتجار فى غلتهــا .. وحتى هذه المهنة التــى اختــارها لم يجد فيهــا طريقــا مفروشــا بالورود ، ولكنه مع ذلك استطــاع فى الاخير ان يوفر لكســائه هذا يكسب منــه قوته ، وقوت (الســائكة) والابــن الصغير ... ولكن مصيبته الآن تكمن فى هؤلاء الجيران الذين يركبون راسهم ، ولا يقيمون له اى وزن لانه لا يشتغل « وظيفة » مثل وظائفهم التى تسمح لهم بان يعتدوا على عباد اللــه من امثــالــه ..

وليست هذه أول مرة يعتدون فيها عليه ، ويهينونه ، وينتهى به الامر فى مركز الشرطة بان يتقدم لهم باعذاره ، ولكنــه الان يخشى ان تتطور الامور بطريقة لايعرف كيف ستنتهى ، ولذا عليه ان يتدخل قبل فوات الاوان .. ولكن كيف .. ؟

* * *

و حوالى الثانية عشرة زوالا توقفت سيارة حكومية فخمة امام

دكـــانه ، ونزل منهـــا (السائق) تفتر شفتاه عن اسنانه البيضاء ، و كانها جواهر كريمه يمنحها للرائى من غير ما مقابل .. وتقدم منه (الجيلالى) مرحبا ، وفى ذهنه تقدح فكرة .. وكما هى عادته ملا لـــه الجراب بما لذ وطاب من الفواكه ، التى سيحملها الى « سيده » ... وزوده (الجيلالى) هذه المرة بكيلو موز زيادة وهو يقول : « خذ هذا للاولاد . . »

ولم يقبل السائق هذه الهدية ، فى أول الامر ، ولكنه عندما رأى الحاج الجيلالى قبلها شاكرا .. ومالبثا أن انطلقا يتحدثان ، ولم ينس الجيلالى أن ذكره باول يوم جاء اليه ، وكيف كان محرجا وهو ينتقـــى الفواكه للسيدة التى كانت تصحبه .. وما أن تشعب بهما الحديث حتى دخل الجيلالى فى تنفيذ خطته : « قل لى ياسيدى الا يمكنك أن تاخذنى على متن سيارتك الى بيتى .. بعد تركت ولدى مريضا ، وأحب أن اصل اليه فى اقرب وقت .. »

وما دامت « الهدية » قد قبلت فان الطلب سيقبل من غير شك.. ولهذا اجاب السائق : « و اين تسكن .. ؟ »

— قريبـــا من هنـــا .. ارجوك ..

وامتطيا متن السيارة بعد أن تـــرك (الجيلالى) احدهـــم يقـــوم بحراسة دكـــانه الى أن يعـــود . .

وانطلقت السيارة السوداء تخترق الازقة الضيقة ، وهى تفسح لها الطريق بمنبه صوتها العجيب ، و (الجيلالى) يرشده الطريق فى كل مـــرة . . .

وعندما وصلا الحى الشعبى المزدحم بالمارة ، وبالاطفال خاصة ، تضايق السائق قليلا ، وود لـــو انـــزل (الجيلالى) حـــالا ، لولا ان (الجيلالى) طمانه الى انهما قد وصلا .. وما هى الا لحظـــات حتـــى توقفت السيارة الفخمة امام بيت (الجيلالى) . .

وانقض (الجيلالى) فجأة على منبه السيارة يضغط عليه بكـل قوته ، ولم يتركه من يده الا بعد أن ظهرت جارته (خدوج) وزوجهـا (المعطى) ينظران الى السيارة الفخمة التى حملته ، واشرابت أعناق الجيران تنظر الى (الجيلالى) وهو ينزل من السيارة الحكومية الفخمة، وادركوا ان فى الامر جديدا ، وعليهم ان ينتظروا مـا سيسفر عنه هذا المنصـر الجديد . .

و ودع الجيلالى « السائق » بكل حرارة ، ونزل الى (التابكة) التى لم تكن قد خرجت الى لقياه ، وخاطبها بقوله : « اسرعى وانظرى الى السيارة الفخمه التى حملتنى . . » / وبعد أن شاهدتها عادت اليه تسائله : « لمن هذه السيارة . . ؟ »

وتوسط (الجيلالى) الساحة وهو يحدثها بصوت جهورى تعمد أن ان يصل الى آذان الجيران : « انها لصديقى حاكم المدينة . . لقد اقسم بايمانه الغليظة على ان يحملنى السـائق على سيـارته الفخمة الى البيت . . انت تعلمين ان الحاكم لا يشترى فواكهه الا من دكانى . . » ثم سالها بعد قليل ، وبنفس اللهجة : « اين الغذاء . . ؟ هات لى الغذاء بسرعة ، فانى على عجل لان لى موعدا مع احدهم . . »

وما ان جلسا على المائدة حتى سمعا دقات على الباب . . وخرج ، فاذا به امام جاره (المعطى) الذى اتى يقدم له اعتذاراته . . وما هى الا لحظات من العتاب ، حتى كان يضمهما عناق اخوى ، لم يخرجهما منه الا نداء الزوجتين :

ـ (آ المعطـى . .)   ـ (آ الجيلالى) . .